بسم الله الرحمن الرحيم.

رقم الإيداع القانوني:

الإهداء إلى:

أولا :

أديب العربية الكبير.... مصطفى صادق الرافعي

رحمه الله

ثمّ إلى :

ولديّ العزيزين

تقي الدين.

أسامــة

وأمّــي وزوجتي

بين يدي

المجموعة القصصية (فواتح)

جمع وطبع إبداعات أعضاء الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية ببسكرة من كتّاب وشعراء وباحثين من أهم النقاط التي اعتدنا إدراجها ضمن البرنامج السنوي ، ولكن للعوز المادي وشحّ المصادر المالية التي تتكرم علينا بها بعض الهيئات الرسمية لم نتمكن سوى من طبع أعداد (المجلة الخلدونية) وبعض الكتب والنشريات التاريخية والتراثية التي تعدّ من صميم الأهداف التي أسسنا عليها هذه الجمعية وللعقود المبرمة مع الهيئات المانحة .

لكن سنة 2007 آثرنا أن تكون محطة هامة لطبع بعض المجموعات القصصية والشعرية في سبيل إحداث توازن بين الإصدارات وبين الملتقيات والفعاليات والأنشطة الأخرى .

وليس غريبا أن تكون (فواتح) أول فاتحة لمجموعة قصصية ترى النور باسم (الخلدونية) هي للكاتب القاص عبد الله لالي الذي عرفه الكتّاب و النقاد والقراء مبدعا متمكنا من أدوات الكتابة مالكا لناصيتها، حيث كانت الصفحات الثقافية بجرائدنا الوطنية مرتعا خصبا لكتاباته وقصصه وحتى مقالاته النقدية... طيلة التسعينيات التي تعدّ من أخصب فترات مسيرته الإبداعية ، كما نشر في بعض المنابر العربية كمجلة (قوافل) بالمملكة العربية السعودية وغيرها...

رغم أنّ الطلائع الأولى للكتابة لدى المبدع عبد الله لالي تعود إلى المرحلة الثانوية حيث كانت قريحته تجود بأعذب الكتابات التي عليها مسحة واقعية نابضة بالوعي...لطالما قرأها عليّ واستمتعت بها سواء داخل الثانوية أو حول منابع المياه العذبة بقريته الوادعة (شتمة) ذات النخيل الوارفة والأشجار الزاهية التي ألهمه جمالها الأخّاذ كي يكون مبدعا.

وأذكر أنّ أستاذ الأدب العربي ونحن في السنة الثانية بثانوية الدكتور سعدان ببسكرة كان قد طلب منّا كتابة فقرة حول (بهجة الربيع) وبعد إعادة الأوراق إلينا مصحّحة أبقى عنده ورقة الصديق

عبد الله لالي وطلب منه الوقوف ، فنهض وبادره بسؤال غريب " من كتب لك هذا النص أومن أين أخذته ؟ فأجاب : كتبته من مخيّلتي ، فأعاد عليه السؤال ، فكرّر له الإجابة نفسها.

ثم اتجه نحونا بعدما تيقن من صدقه قائلا : إنّ زميلكم هذا سيكون له شأن في عالم الكتابة ، بارك الله فيه وفي ما يكتب " وقد صدق حدسه .

كما عرفته بعض الملتقيات الأدبية التي كانت تعقد ببسكرة كملتقى الإتحاف الأدبي ومنتدى الجمعية الخلدونية ومستمعي إذاعة بسكرة الجهوية من خلال عديد من برامجه الثقافية ، إضافة إلى مواكبته أنشطة الجمعية الخلدونية ، حيث يضطلع بمراجعة كل ما تطبعه – إلى جانب أعضاء الجمعية الآخرين - بصفة مستقلة أو ما تنشره على صفحات مجلتها.

وكم كان يحزّ في أنفسنا ونحن نرى صديقنا يبدع في صمت وبعيدا عن الأضواء مع مكابدته اليومية للطبشور في قريته ... دون أن نفعل شيئا أو تقوم إحدى المؤسسات الثقافية أو الهيئات الرسمية بإبراز هذه الباكورة والرفع من عزيمة صاحبها.

أما بالنسبة إلى الأعمال القصصية المنشورة بين دفتي هذا الكتاب فمتروك أمرها للدّارسين والنّقاد كي يضعوها على الغربال ومحك النقد ويقولوا قولتهم ويدلوا برأيهم حولها ، باعتبارها أول عمل يصدر لكاتب اتخذ من القلم والكتابة متنفسا ونافذة يطلّ من خلالها على الآخر...

فوزي مصمودي

رئيس الجمعية الخلدونية

بسكرة في 18 فيفري 2007

تـوطئـة:

كتبت هذه المجموعة بين عامي 1992م 2002 م أي أنها توزعت على مساحة عشر من السنين وهي من أخطر سني الجزائر والشعوب العربية والإسلامية وقد نشرت معظمها في الصحف الوطنية وكنت خلالها أتعرض إلى وابل من الضغوط النفسية والفكرية المدمرة غير أني أشرعت" القلم " سيفا للتحدي وقلت:
لا بد للقلم أن ينزف ليروي ظمأ سني التيه ! لقد حاولت في هذه المجموعة أن أجعلها متناسقة إلى حد ما, تمس محاور يربط بينها سبب متين كما وضعت نصب عيني وأنا أكتب كل حرف فيها أمرين اثنين هما جوهر العمل الإبداعي في نظري:
- سمو المعنى. - قوة الكلمة.
فبغير ذلك يكون مولود الإبداع "خديجا " وثمرته حصرما كما أني سميت هذه المجموعة " فواتح " إيمانا مني بأنها فواتح بدايات لنهايات قد لا تأتي أبدا وهذا العنوان جامع لكل قصص المجموعة وليس هو لواحدة منها، على غير عادة الكتاب لأني لم أجد عنوانا واحدا من بين عناوينها يستوعبها جميعا وإن كان لي مخرج في تسمية الكل بالجزء على عادة الكتاب العرب ولا أدعي أنني تفردت وجئت بما لم تأت به الأوائل لكن حسبي أنى استجبت لإغراء القلم و انقدت لسحر الكلمات الذي بهرني وأخذ بلبي منذ كنت أتهجى (الأبجدية) وإن أذكر فضل أ حد علي في ميدان القصة فإني أذكر بكل فخر فضل أخي و صديقي الحميم فوزي مصمودي الذي بصّرني بالطريق الذي كنت أتخبط فيه على غير هدى ؛ وذلك عندما قال لي ذات يوم لم لا تكتب في القصة ؟ فكانت الفاتحة وكانت بداية الدرب الطويل.

إضافة : لم يشأ الله تعالى لهذه المجموعة أن تخرج في إبانها، ولعل في ذلك خيرا، ولكل نبإ مستقرّ.. فعسى أن ينتفع بها الناس وأن تكون لي في ميزان الحسنات، فإني لم آل فيها جهد اتقاء شطط القلم.. وكبوة زخرف اللفظ ؛ دون مرعاة القيم والمبادىء ، بل قيمنا ومبادئنا هي من صميم رسالة هذه المجموعة..وإن يكن فيها من نفع فمن الله وإن يكن من خطإ فمن نفسي والشيطان ، ولاحول ولا قوة إلا بالله .

كما أقدّم شكرا خاصا وعرفانا خالصا للصديقين الأستاذين ناصر وهابي وسليم كرام لما تكبداه من عناء مراجعة المجموعة وتقديم الملاحظات والتوجيهات النافعة والتي استفدت منها كثيرا في تنقيح القصص وإخراجها في هيئة عساها تنفع القاريء وتمتعه.

عبد الله لالي : 02 مارس 2007 م.

وهوى الصليب...

الإهداء إلى: أطفال الصومال:

جسمه نحيف حتى لا يكاد يرى له ظل على الأرض، أكلت منه الشمس ما ذرأ منه الجوع و المرض ولعلّ بطنه المنتفخ بين يديه كبلون الهواء هو العلامة الوحيدة التي تميزه عما حوله إذا لمحه البصر. وهو الآن مسجى فوق رمال الصحراء اللاهبة لا تقوى رجلاه الدقيقتان – كساق السنبلة الواهنة التي كسرها عبث الريح – على حمله، حرّك رأسه ببطء شديد رافقته آلام مبرحة في الرأس والعينين والعنق ... وجفاف في الحلق يكاد يشقه مزقا ... تصلب في اللسان سمره في مكانه ، عبثا حاول رؤية خيال إنسان أو سماع نبرة صوت أو حركة، حتى سيارة الجيب الفخمة التي أقبلت نحوه تتصدرها شارة الصليب وهي تصارع الآكام والربى وترتفع حينا وتهوي حينا.. لم يشعر بها، ولم تقدر عيناه الكليلتان على رؤيتها إلا أنه عرف ندى الماء يداعب شفتيه ووجهه ورقبته، بفعل خرقة قماش مبللة تمررها يد القسّ على جلده الأحرش ، في البداية خيل إليه أنه مات ودخل الجنة وها قد شرع يستنشق ريحها لكنه سرعان ما عرف انه مازال حيا ما أن سمع صوت القس يلاطفه:

- لا تجزع يا بنيّ.. الرب يحبك وقد أرسلني لنجدتك.. وسكب قطرات ماء في حلقه أحس لها آلاما في البدء كوخز الإبر ، ثم سرت الرطوبة في فيه رويدا رويدا إلى أن أصبح يستسيغ الماء.. وبعد ساعات ذاق الطعام لمّا قال له القس:

- انظر..؟ هذا الخبز يعجبك ؟!

ولم يجب وإنما أراد أن يختطفه من يده ويرمي به في جوفه .. لكنّ القس سحبه بسرعة فائقة قائلا :

- آه خسارة لقد سرقه منك "محمد " أراد أن يصرخ أو يبكي فما ساعده حلقه ولا أسعفته دموعه.. مدّ القس يده بالخبز ثانية نحو فم الصبي:

- انظر إنّ المسيح قد أعاده لك، أشكره على عونه لك... إنه يحبك ! وأخذ الصبيّ يلتهم الخبز في نهم لم يقلل منه شعوره بمرارته تسري في جوفه وما إن استروح نسمات النشاط تنبعث في بدنه ، حتى بدأ يجول بنظره فيما حوله.. المكان نظيف جدا مكيّف الهواء ، البياض يلوح ناصعا في

كل جوانبه، إشارات الصليب يكلل الجدران فوق أسرة المرضى المنتشرة في انتظام على أرضية الغرفة الفسيحة.
- وقف على قدميه بمعجزة... سار بخطوات ملتوية نحو الباب ، خارت قواه ، كاد يهوي ، لولا أن تلقفته يد " الأخت " الممرضة و بنعومة مفتعلة و صوت ماكر قالت له :
- لا . لا تخرج الآن ... محمد العربي ينتظرك في الخارج ليخنقك ، فلا تخرج الآن حتى يأتي السيد المسيح ليطرده ، ويفتح لك باب السلام والخير ، وسيحضر لك الهدايا الكثيرة ... ثم حملته إلى سريره وغطته بالرداء الأبيض الناعم ، ثم قالت له :
- ابق في فراشك يا ولدي ، سأذهب وآتيك بقطعة من الشكولاطة من عند السيد المسيح !
ورسمت شارة الصليب على صدرها ثم ولت ... رنّت كلمة السيد المسيح في أذنيه وأخذه صداع رهيب فتعالى صوته شيئا فشيئا بالصراخ : السيد المسيح السيد المسيح ... ووضع يديه على رأسه الذي خيل إليه أنه سينفجر ، وضغط بشدّة وأخذ يتقلب ذات اليمين وذات الشمال .
كان إلى جانبه شيخ عجوز اشتعل منه الرأس شيبا، فقام إليه ووضع يديه على منكبيه الغضين وحاول تهدئته بلطف ... رمقه الصبي بنظرة حائرة وحرك لسانه بصعوبة :
- من هو السيد المسيح ؟ وهل هو حقا الذي يعطي دائما الخبز والحلوى ومحمد يسرقها مني !؟ .
- لا ؛ لا يابني لا تصدق هؤلاء النصارى ، إنهم يريدون منك ترك دينك لتصبح نصرانيا مثلهم فحذار حذار أن يخدعوك ؟
- ولماذا يفعلون بي ذلك يا عمي !؟
- إنهم يكرهون الإسلام ونبي الإسلام محمد العربي ... وأحس الشيخ بقدوم الأخت الممرضة فعاد إلى سريره على عجل ! فرمته بنظرة مريبة ثم أقبلت على الصبي:
- أنظر ماذا أحضرت لك يا جوزيف ...!
- أنا اسمي يوسف ...؟
- بل أنت جوزيف هذه إرادة السيد المسيح الذي أعطاك هذه الهدية من الشكولاطة...
ألا تحب السيد المسيح ؟ خذ ... تذوق ؟

مدّ الطفل يده في تردد ثم سحبها قليلا إلى الوراء ... فارتسمت علامات الخوف على وجه الممرضة ...
- كيف ؟! ترد هدية السيد المسيح !
ومدّ يده ثانية وأخذ القطعة ووضعها على صدره...جاء المساء وأقبلت الممرضة ثانية لتطلب منه أن يستعد لمقابلة حضرة القس ... وبعد أن ألبسته ثوبا جديدا أخذت بيده إلى غرفة ملحقة بالمستشفى ... طرقت الباب وبعد أن أذن لها القس دخلت رفقة الطفل الصغير...الغرفة مضاءة بالشموع وتبدو في الواجهة تماثيل عديدة للسيدة العذراء والسيد المسيح على الصليب، وفي وسط الغرفة إناء كبير فيه الماء المقدّس ، والقس راكع على ركبتيه يدعو... رسم القس علامة الصليب على صدره وقام ببطء ...مشى ناحية الإناء حتى إذا حاذاه طلب من الصبي الاقتراب ...
- تعال يا ولدي ليباركك الرب تعال ...
تسمّر الصبي في مكانه وأبى أن يتقدم... فدفعته الأخت الممرضة في ظهره بلطف:
- تقدم يا عزيزي ليعمدك الأب ، و تدخل ملكوت السماء تقدم... سار الصبي في خطوات جزعة، و قلب واجف و أنفاس تتسارع و عينين متألقتين بدمع متحير و ما إن دنا من القس حتى غمس هذا الأخير يده في الإناء ثم رفعها لينثر بأصابعه رشاش الماء على وجه الصبي ويهمهم بكلمات طقوسية غريبة ، لم يفهم منها الصغير سوى:
المسيح يحبك... المسيح يحبّك... فانتفض هلعا وصرخ من كل أعماقه.
وأنا أحبّ محمدا النبي العربي... أحبّ محمدا النبي العربي... !
فبهت القس مكانه و تلعثم لسانه ... وسقطت الأخت على الأرض من هول المفاجأة.

افتح يا سمسم..

- أف ...! ما هذه الرائحة المقرفة، كأنّ المكان يعج بالجيف !
تلفت يمنة نظر يسرة، مسح البهو الضيق بنظرات قلقة لم يلحظ شيئا غير عـاد ... الوجـوه الصـفراء الشـاحبة ذاتـها، المكاتـب الضـيقة الوسـخة والطـاولات التـي انتشـرت فوقهـا الأوراق وأضـابير الملفـات المنسـية ، الـديكور المنتحل والمتناقـض مـع تلـك الكائنـات التـي تـروح وتجـيء فـي إطاره الجامد بتثاقل وتململ مقزز.
- عجبا إذا من أين تأتي هذه الرائحة المقرفة ؟
تطلع إلى السقف ، ارتدّ إليه لون رمادي باهت ؛ بث في نفسه رغبة شديدة في التقيؤ... أمعاءه الخاوية تـأبى عليـه ذلـك، بحث عن مقعد يلقي عليـه بجسـده المنهـك لـم يعثـر علـى مقعـد واحـد سـليم ، كلهـا مضعضـع أو مهترئ... فكر في قدميه المتورمتين ، تمتم:
- مرحبـا بمزيـد مـن الوجـع ... فالحيـاة ذاتـها غـدت ورمـا كبيـرا يهـدد بالانفجار بين الفينة والأخرى. تذكر و صية أستاذه الراحل:
" إياك يا بني والأماكن الموبوءة ، لا تـشغلن فيها مقعدا ، ولا تطأنّها بقدم رجل إلا لضرورة لا محيد لك عنها ".
... ساعتها لم يعلم ماذا يعني أستاذه الفقيه بالأمـاكن الموبـوءة ، تـرى هل تكون هذه ؟! و صرخ في أعماقه:
- مستحيل إنها مصارف صحية لحاجات المجتمع المعقدة ! وجاءه صوت صاد من ذات أعماقه:
إنها تماما مثل المصارف الصحية لحاجات المجتمع البيولوجية تقدم من أقرب مكتب إليه ، تبدّى لـه شبح شابّ منكوش الشعر يلوك قطعة علك بتمطق ، ويلوح من وجهه بريق مصطنع خاله من أثـر مرهم الياسمين أو بـودرة بيضـاء ، وقفت فـي ذهنـه علامـات استفهام ضـخمة بحجـم نخلـة الساقية الكبيرة التي تمرّ بدكان العم بشير الجزار؛ ذي الكرش المنتفخ ، مسح العلامة من ذهنه بحركة من رأسه أو كذلك خيّل إليه !
سأل الموظف في لباقة:
- سيدي من فضلك أريد أن ... !

- قاطعه بنزق وهو ما يزال يداعب قطعة العلك بلسانه:
- آنسة من فضلك !
- أف ... !
خرجت هذه المرة من كل ذرة في خلاياه استرجع في صدره ، بعد أن تراجع بضعة أشبار إلى الوراء ، ثم أبدى تأسفه في تلعثم وتدارك وهو يسوّي نظارته الطبية:
- معذرة آنستي ... فنظري كما ترين ... أقصد أنه كثيرا ما يخونني !
- لكنك ما تزال شابا في عنفوانك.
دغدغت عبارتها هذه إحساسا غريبا في نفسه كاد ينساق وراءه، لكنه أسرع وأنقذ نفسه من الورطة المحتملة:
- هل تعلمين آنستي أين أستطيع تسوية وضعية هذه الوثيقة ؟
وسحب ورقة مهلهلة من جيب سترته وبسطها قدامها على المكتب. أدركت ما يعانيه من تيبس داخلي ، انزلقت نظراتها عن وجهه لترمق الوثيقة بنظرة مقتضبة ... تمطقت وهي تقول له مشيرة بيدها ذات الأصابع الطويلة المنتهية بأظافر اصطناعية تزيدها طولا:
- هناك في الاستعلامات... سيخبرونك !
ودسّت وجهها بين صفحات مجلة نسائية خليعة.
شكرها في امتنان ثم تراجع إلى الوراء وهو ما يزال يعيد تسوية نظارته فوق أرنبة أنفه ، واتجه نحو مكتب الاستعلامات ، أحسّ أن الرائحة المقرفة تزداد حدة ، وتتسحّب في زحف مميت إلى داخل قصباته الهوائية لم يصدّق بصره عندما جبهته اللافتة في شباك مكتب الاستعلامات بخط متعرج ومضطرب:
سأعـــود بعد5 دقائق وشـــــكرا.
- أوفـ ... ف !
كاد لهب أنفاسه هذه المرّة أن يحرق اللافتة السخيفة ، مرّ الوقت بطيئا جدا مثقلا بنكهة أنواع الدخينات المجلوبة من كل بقاع العالم والممتزجة بالرائحة المقرفة العجيبة !
نظر في ساعته فأنبأته بمرور أزيد من نصف ساعة، شك في الأمر رغم نبض الألم الذي يمزق باطن قدميه ! أحب أن يتأكد من خلال ساعة البهو الحائطية، فألفى عقربيها متوحدين في عناق أبدي لا يتزحزحان عن موضعهما قيد أنملة .

وعلى حين غرة خرق طبلتي أذنيه صوت أجش كأنما ينبعث من بئر عميقة الغور !؟
ألتفت إليه بسرعة و قد قف شعر رأسه و جلده !
- أريد أن اسأل أين يمكنني أن أسوي وضعية هذه الوثيقة وأشار إليه بها، أمسك الموظف الوثيقة بتثاقل ثم وضعها على إضبارة منتفخة أمامه، بينماأخذ يشعل دخينة " نسيم " بتوتر وانفعال بين ، وبدل أن يتفحص الوثيقة أرسل دفقه من الدخان تبددت على زجاج الشباك ثم أطلق العنان لتأوهات حرى اندفعت من صدره كالحمم و شرع يشكو حاله ووضعه المزري لمراجعه.
- اللعنة على هذا الزمن ، يرفع أناسا ويخفض آخرين في طرفة عين ! موظف ساذج لا يكاد يفقه من أمر الإدارة شيئا ، يرقى إلى مدير مصلحة بين عشية و ضحاها ، وقد كان بالأمس يتمرن على يدي وقد أرضعته أبجديات التعامل فلا يكاد يفقه أمرا إلا بالكاد ... يرقى هكذا بضربة حظ، لا لشيء إلا لأنه ابن...
ثم أمسك عن الحديث وراح يدعك الدخينة التي لم يحترق نصفها بعد في مرمدة نحاسية قذرة تتراقص بين أصابعه ... وأضاف:
- هيه ... كل هذا لا يهم الأدهى والأمر أن يتخطوني في الترقية ثلاث مرات على التوالي دون أدنى مبرر أو سبب وجيه ... لا بأس " دوار يا زمن " !... قلت لي ماذا تريد؟!
- سألتك أين ...
- حسن ... حسن على كل أنا لا أعمل بالاستعلامات عادة ، فقد خلفت موظفا في عطلة مرضية ، يمكنك العودة بعد أسبوع.
- ألا يمكنك أن تلقي نظرة على الوثيقة فلربما دللتني على بغيتي وكفيتني شرّ الانتظار فالأمر مستعجل للغاية ... أرجوك !
- حسن سأفعل ... هل معك دخينة " نسيم " أو " إلهام " لا يهمّ..؟
وكور علبة دخانه الفارغة ورمى بها من كوة الشباك ! لتقع عند قدمي مراجعه !
- آسف فأنا لا أدخن.
- هنيئا لك فقد أرحت نفسك من " المرض " والقرف ! في الواقع كم من مرة أحاول فيها الإقلاع عن هذه العادة اللعينة ، ولكن مصائب الدنيا تمطر فوق رأسي من كل حدب وصوب ، فلا أجد ملاذا غير هذه الدخينات الحقيرة تخفف عني وطأة المعاناة !

ورمق الوثيقة بنظرة عجلى ثم قال له:
- إنها مهترئة ولا أكاد أفهم حرفا مما هو مكتوب عليها ، أقصد مصلحة الأرشيف وهناك تجد عمي" الخير" وهو خبير في مثل هذه الوثائق القديمة وما كاد يسحب الوثيقة من بين يديه حتى شعر كأنّ الرائحة المقرفة تصفعه على خديه بالتوالي ثم تتلبسه من رأسه إلى أخمص قدميه ، وحثّ خطاه فارّا من هذه العفونة المهلكة ، وكلما ازداد إيغالا داخل البهو الضيق ، كلما تضاعف مقدار دفق الرائحة الكريهة الذي يتلقاه بكل حاسّة من جوارحه فيكاد يرى لها لونا داكنا ضاربا إلى السواد يسدّ عليه مسارب الحركة في الجهات الأربعة ...
حدثته نفسه بالعودة على أعقابه ، تذكر نصيحة أستاذه:
" إياك والأماكن الموبوءة ! " لكنّه قرّر أن يقوم بمحاولة أخيرة فلربما وجد رجلا شهما ييسر له طلبته !... انتصب أمام ناظريه باب موصد كأنّه مدخل مغارة تاريخية ، تذكر حكاية علي بابا واللصوص الأربعين.. أراد أن يصرخ من أعماقه:
" افتح يا سمسم " لكنه سخر من هذا الخاطر الجنوني .. نقر على الباب نقرات خفيفة وانتظر برهة .. وأعاد الطرق ثانية ولما لم يسمع شيئا حرك مقبض الباب حركة نصف دائرية.. ودفعه إلى الأمام في حذر شديد !
رسمت الموظفة على إحدى زوايا فمها نصف ابتسامة على شفة تتفجر حمرة ، وهي تقلم أظافرها وتنفخ فوق رؤوس أصابعها بين حين وآخر تملكته دهشة عارمة .. توترت بوصلة مشاعره وتأرجحت بين القرف والإثارة وتمتم وهو يمسح كامل جسدها بنظرات هلعة:
" يا إلهي ! إنّ ثلثي جسدها لا يستره شيء .. ازدرد ريقه في عناء وناضل بمرارة وهو يحاول تشكيل صيغة جديدة لسؤاله القديم:
- هذه الورقة يا آنسة.. أودّ تسوية وضعيتها !
- آسفة ! إننا نقوم بالجرد السنوي وأوقفنا كل عمل عداه ، يمكنك مراجعتنا بعد شهر ! وتراخت على كرسيها الوثير وهي تحاول تسوية خصلة من شعرها نفرت فوق جبينها البارز مثل رأس الدبور.
سألها ثانية ورائحة العفونة تلفّ رأسه بدوار فظيع:
- أين يمكنني أن أجد مكتب المدير يا آنسة ؟
أرسلت ضحكة داعرة سرعان ما أردفتها بتكشيرة من أسنانها الصدئة وأمطرته بوابل من الأسئلة الساخرة:
- ما شأنك بالمدير ! أو لم يقنعك كلامي ؟

وهل تظنّن بأنّ المدير متفرّغ لاستقبال أي أحد وفي أيّ وقت.. و.. ؟
غامت الدنيا في عينيه ، همّ بأن يصفعها أو يمسكها من شعرها المثقل بالأصباغ و يكنس بها الأرض القذرة ، لكنّه تمالك نفسه ثم انقلب على عقبيه وأخذ يعدو في البهو وهو يتمتم:
- الرائحة العفنة.. الرائحة العفنة تخنق أنفاسي ، اللعنة على الأماكن الموبوءة !
وما كاد يصل إلى الباب الخارجي حتى اعترض سبيله الحارس:
- إيه.. ! أين ؟ كيف دخلت المؤسسة دون شارة زيارة.. أو تحسب الأمر هملا ؟
أحس بمدى بشاعة القذارة التي تنضح من فيه ! لم يتمالك نفسه هذه المرة لملم قبضته وطوّح بها جسد الحارس المترهل أرضا.. نظر إليه باحتقار وهو يناضل من أجل الوقوف على قدميه ثانية.
تفل عليه بحقد مرير وصرخ:
الوباء يسكنكم أيتها الحشرات القذرة.. " أتفووه " يا زبالة.
وخرج إلى الشارع الكبير واستنشق كمية هائلة من الهواء وصرخ ملء شدقيه:
- افتح يا... سمسم...

أبجديات الانعتاق..

*** بداية:**
أي جلادي المسكين ! لو تدري أنّ سوطك يحطم فيّ أغلال الرق والعبودية لما أهويت به على ظهري لحظة ، لتمزق إهاب التراب !

مسكين ذلك الجلاد مقيت الملامح ، كم ترعبه صورته في المرآة فيروح يطاردها في الوجوه الراكعة في ذعر عند قدميه و يمزقها وجها وجها.. وصورته المقرفة ثابتة في عمق المرآة لا تغادر مخيّلته طرفة عين.
أما الشيخ الذي ملأ زنزانته رهبة من دون أن يحرك واحدا من أصابعه العشر ، فإنه لم يعبأ بجدران السجن و لا بالأسلاك المكهربة و الكلاب المتوثبة لتمزيق لحم الإنسان (الشهي) و لا تثير في نفسه غضبات الجلادين وزعقاتهم أدنى شعوربالخوف أو الفزع ! شفتاه و حدهما تتمتمان :
- الله ... الله ... الله قيوم السماوات و الأرض ... ويمد بها صوته في ترنم شجيّ و تجيبه الجدران بصدى متناسق مع تسبيحه، كأنما هي تنبض بالحياة ... ويجفل الجلاد الواقف عند عتبة الباب الموصد و يودّ لو أنه أستأصل لسان هذا الشيخ العنيد الذي يأبى أن يهدأ لحظة برغم الجوع والعري و الزمهرير! و تحدثه نفسه أن يفرغ في ذلك الرأس الأشيب ذخيرة مسدسه كاملة، لعله يطفئ بعض نيران غضبه وحنقه... و يزداد لسان الشيخ همهمة:
- إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ... يا حبيب يا قريب..
الجلاد يختنق؛ غصّة كبيرة بحلقه، رجفة ترعد كيانه يصرخ بعناء:
- أما من سبيل إلى خلاص ؟ ... الدنيا في عينيّ غدت سجنا كبيرا نتن الرائحة.
تنتفخ أوداجه.. تتقد عيناه رعبا، يفتح الباب الرصاصي اللون في عصبية مفرطة يخطو باضطراب نحو الشيخ المسجّى في الزاوية وقد أشعت من لحيته البيضاء المنسابة في تناسق خلاب – كأنما باتت تمشطها الملائكة بأمشاط من ذهب – غلالة من نور آسر، فاضت على المكان ضياء ورونقا رفع سوطه وهو يصرخ:
- كفى! كفى من هذا الهراء وإلا أسكتك إلى الأبد، أما تتعب ؟أما تنحني لك هامة وأنت السّاكن الأطراف مثلك مثل جلاميد هذه الزنزانة العتيقة؟... ويستأنف الشيخ عزفه البديع غير عابئ بشيء.
- الله نور السماوات والأرض...الله نور السماوات والأرض...والجلاد المسكين يصرخ مثل طفل صغير امتنعت أمه أن تستجيب لبعض رغباته السخيفة:
- ويلك ! أنّى لك كل هذه القوة الرهيبة والسّكينة العجيبة.. و يرمقه الشيخ بنظرة حنوّ وإشفاق:

- اجلس أيها العبد المسكين أعلمك أبجديات الانعتاق !
ويفغر الجلاد فاه... ويسقط السوط من بين قبضته المرتخية وهو يتمتم في ذهول جاثيا على ركبتيه:
-أبجديات الإنعتاق ! .. وما أبجديات الانعتاق ؟!
- إنك قد خطوت أولى الخطوات ... إليها ... !

برهان ربّي ..

كان الجو سحرا والنسمات تداعب الوجوه التي تستقبل أولى تباشير اليوم الجديد ، أدار الشيخ عبد المرتضى مفتاح تشغيل سيّارته العجوز فاشتغل المحرّك ببطء وشخير ثقيل ، ينمّ عن تراكم السّنين والأعوام على كاهله المتداعي تماما مثل الشيخ عبد المرتضى الذي انسحبت عن رأسه آخر الشعرات السوداء عام أول واكتملت نصاعة بياض رأسه وتمّ له الوقار بكل أبعاده.. الشيخوخة والرزانة والتدين الشديد والحكمة الفائضة من تقاسيم وجهه.
ونادى الشيخ عبد المرتضى أفراد عائلته:
- هيّا اركبوا يا أولاد يجب أن نصل إلى العاصمة قبل المساء ، وامتلأت السيارة عن آخرها وبقي الفتى رشيد واقفا مقطب الجبين..

فرمقه جده بعين اللطف والشفقة وأشار إليه أن يصعد مع أخيه الأكبر على المقعد الأمامي وانطلقت السيارة متهالكة تمخر طريقها بصبر عجيب ! الطريق الطويل والممتد في التواءات وتعرجات كبيرة معقدة والسيارات تتدافع في سباق محموم ، كأنما الدنيا قطار ينطلق على عجل ، والكل يحاول امتطاءه بأيّ وسيلة ، فبعضهم يلجه من الأبواب وبعضهم من النوافذ ، وآخرون يرقون إلى سطحه رغم العواصف والريح الهوجاء المتولدة من اندفاعه نحو الأفق البعيد في سرعة مذهلة !

إلا أنّ الشيخ عبد المرتضى هو الوحيد الذي يقود سيارته على مهل وبتؤدة عجيبة رغم وشوشات أحفاده وضجرهم من هذا السير الممل.

ويلتفت إليهم الشيخ راسما على شفتيه بسمة حانية وهو يطمئنهم بود:

لا تجزعوا سنصل في الوقت المناسب إن شاء الله..

وكأنّ لسان حاله يقول:

" لن يفوتنا ركوب القطار الكبير مهما اشتدت سرعته واكتظ الناس ، فإنه لكل مكانه الذي يسعه ومحطته التي سينزل فيها مهما حاول التقدم والتأخر ! واعترض سير السيارة حاجز لشرطة المرور ، فتغيّر وجه الشيخ ثم ما برح حتى سبح وحوقل ونظر إلى حفيديه الملتصقين بجنبه ، ثم تمتم في يقين:

" ومن يتق الله يجعل له مخرجا " وكانت قدماه تضغطان على المكابح وينزل زجاج نافذة السيارة ثم يسحب وثائقه من جيب معطفه استعدادا للمراقبة..عينا الشرطي تتركزان على حفيديه في المقعد الأمامي ، يحيي في فتور ويطلب منه الوثائق.. فيناولها له محاولا رسم ابتسامة على شفتيه.. يقلب الشرطيّ نظره في الوثائق بعصبية بادية:

هل أنت تمارس النقل العمومي ؟

- كلا يا سيدي ! هؤلاء أفراد عائلتي.. (ثم أضاف في حذر) صحيح أنني أحمل فردا زائدا على المسموح به قانونا..لكنني كنت مضطرا ، وهو فتى صغير على أية حال !

- ليس ذلك مبررا يعفيك من التزام القانون !

- وماذا أفعل يا سيّدي للفتى وكان لزاما أن يأتي معنا ولم يكن ممكنا أن نتركه في البيت وحيدا ونحن مسافرون إلى مئات الكيلومترات من مدينتنا!

- هذا ليس شأني ولا يهمّني وما أدراني أنا أنكم جئتم من المكان الذي تشير إليه ، هذا كلام معتاد لدينا ، كثيرا ما تذرع به أمثالك ممن يتحايلون على القانون.

- أرجوك يا سيدي لا تسمني بهذا الميسم الشنيع ! فما أكره لديّ من أن أحتال على القانون أو أخالفه وما في رأسي بقيّة لكذب أو مراوغة ولا احتيال.. يضحك الشرطي في سخرية وهو يلوّح بالوثائق في يده مهددا:
- كلام فارغ واعتذار سخيف لا ينطلي عليّ أبدا.. ثم يتجه نحو درّاجته الناريّة ويسحب من فوق كرسيها دفتر العقوبات ويعود ناحية الشيخ في تثاقل وتأفف يشرع في كتابة الغرامة ويقول للشيخ بلغة جافة:
- عليك غرامة ألف دينار !
- ولم يا سيّدي ؟!
- و تسأل لم ؟! لا تمثل عليّ دور الطيّب البريء وتتقمّص صورة التقيّ الورع..المخالفة ثابتة عليك ولا داعي للاحتجاج ، وإن تفوّهت بكلمة كان مصير سيارتك " المحشر" وطأطأ الشيخ رأسه مليّا ثم رفعه ورمق الشرطي بنظرة وقورة خالطها الأسى والحزن:
- حسبي الله ونعم الوكيل !
و فجأة تأجّجت النار في محرّك دراجة الشرطي وذهل الناس لما حدث و ظلوا ينظرون واجمين دون أن يحركوا ساكنا بمن فيهم زملاء الشرطي والشرطي نفسه ، فليس هناك من سبب منطقي لاشتعال النار في المحرك بهذا الشكل ، فالفصل بارد والمكان خال ممّا يثير أيّ شبهة...وبعد فترة من الجمود هرع أحدهم وأخرج مطفأة من سيارته وتمكن من إطفاء النار في ثوان ، نظر الشرطي إلى درّاجته التي غمرها السواد فانكسرت عيناه واعتراه الذهول.. ورفع بصره إلى الشيخ في ذلة وحياء وهو يمزق ما كتبه على دفتره وقال في استسلام !
- أنا المذنب يا سيّدي الفاضل..إنّ وجهك وجه صلاح وتقوى ولكنّ بصيرتي طمست ورنت على قلبي غشاوة ، لولا برهان ربي ! فامض بسلام.

درويشـة..

أهوى المدير بقبضته على مكتبه بانفعال شديد وهو يصرخ في نائبه:
- سخافة... سخافة ، هذا الدرويش الأحمق تجعلون لـه كل هذا الاعتبار، وترفعونه إلى مكانة لا يستحقها !
- لكن سيّدي ... رأينا بأعيننا وسمعنا بآذاننا !
- هراء ... ما ذاك إلا محض الصدفة.
- معذرة ، إنّ الصدفة لا تتكرر بهذه الطريقة ... مدير يعزل قبل ساعة واحدة من محاولته فصل الشيخ عن العمل ، والثاني يصاب بحادث مرور خطير تركه مشلولا قعيد الفراش ، وفي كلتا الحالتين شاهدنا بأعيننا الشيخ العيد وهو يخرج من مكتب المدير رافعا يديه إلى السماء يتمتم بكلمات وأدعية خافتة !
-إذن ، صدقتم دجلـه ، و أضلكم بدروشته ... سوف نرى إن كان ذلك سيستمر طويلا ؟!
- ما الذي تنوي الإقدام عليه يا سيّدي ؟

- فصله طبعا ودون أن تراجعني في الأمر ثانية ، فقط نتربّص به حتى يكتمل ملفه الأسود فقد نقل إليّ أحد العمال أنه ينام أثناء الحراسة ، و هناك من أخبرني أنه يظل يقرأ القرآن ولا يلتفت إلى عمله ، وهذه الشركة ليست زاوية أو جامعا إنها مكان عمل ... و عندما تكتمل حيثيات إدانته سيكون مصيره الشارع بلا أدنى رحمة أو شفقة ، و تتنزل الأخبار على مسامع الشيخ العيد أن المدير الجديد هو الآخر ينوي فصله و يحذّرونه من التشرد في الشارع وتعرّض أولاده للضّياع والهلاك ، و ينصحه أحدهم في إشفاق و توسل.

- اسمع يا شيخ ، اذهب إليه و ترجه أن يرفق بك ولا بأس أن تتملقه قليلا من أجل مصلحتك ومصلحة أولادك فهؤلاء " الكبار " لا يرضون إلا على من ينافقهم ، ويتملقهم ، ويخضع لأوامرهم وأهوائهم ... فأشفق على نفسك ولا تكن متشدّدا فإنّ الدّين يسر ! و يبتسم الشيخ العيد في يقين و يردّ في هدوء وسكينة:

- إيه يا مسكين ، أنت في واد وأنا في واد ، أو تظنّ أنك تشفق عليّ أكثر مما أشفق على نفسي ، وتحبّ مصلحتي أكثر منّي؟! كيف أسعى إلى المدير ، وأتملقه رغبة في رضاه وطلبا لعفوه ، و أترك ربّ المدير ؟! إني لجأت إلى من هو أعلى سلطة وأكبر قدرة وتمكنا.

- شأنك ... لقد نصحتك فافعل ما بدا لك.

ويأتي اليوم الموعود الذي يتأخر فيه الشيخ العيد عن موعد عمله لبضع دقائق بسبب المواصلات وزحمتها، فينتهزها المدير فرصة ويطلب نائبه عبد الرحمان فورا ...

- لقد آن أوان درويشكم يا عبد الرحمان ... هذا يومه الأخير في الشركة ، فقد أخبرت أنه لم يصل إلى حد الآن وقد مضى على موعد العمل أكثر من ربع ساعة ، فمر السكرتيرة أن تعدّ قرارا بفصله حالا.

- بأي صفة تصدر قرارك هذا ؟!

- ويحك يا عبد الرحمان ! بصفتي مديرا للشركة هل نسيت أم ماذا دهاك ؟

- آسف سيدي ... قرارك لن ينفذ.

بهت المدير ثم تراجع قليلا إلى الوراء بكرسيه " المتحرك " ! وسأل نائبه في تعجب واستنكار:

- أتعصي أوامري ؟!

- لقد حذرتك ، ولكن لم تلق لكلامي بالا !

- بم تهذي يا هذا ، تحدث بوضوح أكثر.
- لقد جاءت إلى السكرتارية الساعة برقية وزارية تأمر بنقلك فورا إلى أقاصي الصحراء لتدير إحدى الشركات البترولية هناك وتمّ استخلافي في مكانك مؤقتا.
ودهش الرجل وكاد يصعق لهول الفاجعة ! وبعد أسابيع ، جاء المدير الجديد أبلغت له القصة بكل تفاصيلها ودقائقها مع بعض الزّيادات والمبالغات ... واستمع المدير لكل ذلك باهتمام وتأثر بالغ ، فقد كان ممن يؤمنون بالدروشة وقدرات الأولياء العجيبة وتصرّفهم في الكون(!!)...
ثم أمر بمثول كل أعوان الأمن في الشركة إلى مكتبه ، وجاءوا ودخل الشيخ العيد آخرهم ، فقام إليه المدير محييا ومكرما وأقعده منه غير بعيد ثم خاطبه في توقير وإجلال:
- لقد عيّنتك رئيسا لأعوان الأمن ، ولك عليهم مطلق التصرف منذ اللحظة...
(وطلب من الجميع الانصراف ما عدا الشيخ العيد) ...
وانتظر أن تنبسط أسارير الشيخ أو يتهلل وجهه ، ولكن العكس هو الذي حدث ، فقد انقبض وشمله وجل شديد ، وردّ على المدير في تلعثم:
- أنا لست أهلا لذلك يا سيدي ... هناك من هو أفضل مني وأحق بالمنصب.
- كلا ... كلا أنت الأكفأ ، فأمانتك ، وإخلاصك ، وصدقك كل تلك الصفات تؤهلك له ... ثم إنّ ملفك أبيض ناصع لا شية فيه (!)
و صمت الشيخ قليلا علامة على قبول الأمر الواقع ثم استأذن للانصراف ، فأذن له المدير ، وما إن همّ بتخطي عتبة الباب حتى سمع المدير يشيعه بتلطف:
- بالتوفيق ... و لا تنسنا من دعواتك يا شيخ.
و أمام باب مكتب المدير ، رفع الشيخ يديه إلى السماء يتمتم بكلمات غير مفهومة ، ورآه موظفان كانا يقفان بالرواق ، فقال أحدهما للآخر:
- إنه يدعو على المدير الجديد بلا شك.
- وما أدراك لعله يدعو له ، فقد سمعت أنه يحب الأولياء والصالحين ، وسيكرم الشيخ ويجله ويجعله من مقرّبيه.
- أواه يا صاحبي ، هؤلاء الدراويش لا تعرف لهم قرارا ولا تسبر لهم غورا ، ربما كان الذي يرضينا نحن يغضبهم هم ولذلك لا أستبعد أن ينال المدير الجديد منه شر كبير كسابقيه ...

- لا تبالغ ...
و استمر بين الاثنين نقاش عقيم !

كاف.. نون.

تسمع اسمها ينبعث من مكبر الصّوت فتتجاوب أصداءه في القاعة ، ويخترق أذنيها رنين غريب ، ولكنه عذب وآسر... تتطلع الأعناق وتشرئب الأبصار في فضول جامح وتتهامس بعض الأصوات في قلق:
- ترى من هي ؟! ومن تكون ؟
- لطالما قرأت لها ولكنني أجهل تماما من تكون رغم معرفتي الواسعة بمعظم الأسماء الأدبية... وقد أعياني معرفة أيّ شيء عنها سوى ما تكتبه من شعر فذّ له جاذبية وسحر لا يقاوم... ويهتف غرّ من وسط الجمهور:
- إنها محجّبة يا للنكسة ! هذا القلم الفياض صاحبته رجعية ! لا أكاد أصدق !
وتمشي نحو المنصة في خطوات متعثرة يكاد الحياء يكبّها على وجهها ، ويتابع صوت المكبر تعليقاته:
- نعم سادتي إنها الشاعرة اللغز ، الشاعرة الخفيّة التي تقاتلت أقلام النقاد حول شعرها ، دراسة وتحليلا مستفيضا ، و إنّ شعرها بحق شعر متميز ، جريء وقوي أحدث ثورة أدبية صاخبة هاج لها رجال الأدب والثقافة وماجوا... هذا القلم الدفّاق لم نكن نعلم عنه سوى رمز مقتضب كانت تذيل به قصائدها الشعرية ، كاف.. نون !
سادتي لم يعد هذا الاسم متواريا.. هاهي صاحبته تلبّي دعوتنا للمرة الأولى وتكشف النقاب عن حقيقة شخصيتها وتسعدنا باستضافتها اليوم ،

لتقرأ لنا بعضا من روائعها التي بزّت بها كلّ الشعراء فملأت الدنيا وشغلت الناس... ويتململ كهل في مكانه من مقدمة الصفوف وهو يعبث بغليونه في اضطراب شديد ثم يتمتم:
- ونقاب أيضا يا للمهزلة ! سنرجع آلاف السنين القهقرى ، إلى زمن الخنساء وزرقاء اليمامة ، وعوجي علينا ربة الهودج ! هذا سخف !
لم تأبه بالوشوشات والغمزات ...شقت طريقها في عناد رغم الحياء والخجل وهيبة الموقف وعندما استقرت قدماها على المنصة نظرت بعينين حوروين إلى رجل يجلس في الصف الأول وبقربه صبيّ ناهز الثامنة من عمره ، وهما ينظران إليها بعيون ترسل حبّا فياضا يمطرها كوهج نوراني يثبت فؤادها ، وانتظر المقدم أن تخرج من حافظتها، الأوراق التي دبجت فيها قصائدها ، بيد أنها لم تفعل وارتجلت الإلقاء معتمدة على ذاكرتها لأن ما تكتبه مسطور في صدرها قبل أن تخطه يدها على القرطاس ! سكون مريع يرين على القاعة ، عيون تتلألأ فيها الدهشة والحيرة ... الأسماع كلها مرهفة لالتقاط اللهاث والنبسات والنأمات... خرجت الكلمات... من فؤادها من كل جوارحها ، شخوصا حية تداعب الأرواح وتملأ القلوب نشوة وطربا ، ما درت وهي تشدو وهي تقاتل الصمت وهي تخط في جدار التاريخ حروفا من ذهب أو لهب ، ما درت أنّ دموعها انسربت رقراقة ، تحيلها الأضواء الكاشفة إلى لآلئ متدافعة تظهر هنيهة ثم تختفي تحت نقابها ، فتحسّ لها القلوب دفئا ورفيفا يداعب صمت القاعة ..
لم تدر كم من الوقت انقضى وهي تعزف سمفونياتها البديعة ، فالزمن في مثل هذه اللحظات منعدم ، لا يمكن أن يخضع لدوران الأرض أو حركة الشمس ، بل هو زمن نفسيّ يعيشه المرء شعورا دافقا وحياة سامية لا كباقي الحيوات ، حياة توقف عجلة التاريخ ليدون بعض أسرارها في ذاكرته التي لا تنسى ، قبل أن يكمل دورته العظمى في مسار الكون ، لم تكن تقرأ شعرا إنما كانت تنفث من روحها الشفاف لآليء من نور يزدهي بها المكان ويخشع كلّ لسان ! وما إن ختمت ترنيماتها الدّاوية حتى ران على القاعة صمت مطبق ورهيب كأنّما لم يشأ الجمهور المستمع أن يخرج من تلك النشوة البديعة التي أسرتهم وطوقت أرواحهم – الظامئة إلى السموّ– بأغلال من عبير الكلمات ، وما كان صمتهم إلا استزادة ودهشة وذهولا وما عتموا طويلا حتى انفجرت القاعة بالتصفيق الحاد،

وأصوات الاستحسان تتعالى وتتداخل كأنما هي لثغات أطفال يناغون أمهم في صفاء وطهر بديع ! وتمتم صاحب الغليون بامتعاض:
- سحقا لها من شاعرة ! هذه الرجعية الظلامية تنفث سحرا لا شعرا كأنما الجنّ يكتبون لها تمائم الإلهام ، خسارة أن يكون هذا الصوت الغرد لمتخلفة محافظة ! تلاشت تعليقاته في زخم هتافات الجمهور وتصفيقاتهم ، فقام من مكانه يجرجر جسمه المترهل وخرج في خطى مثقلة وسحابة من دخان غليونه تلاحقه حتى توارى عن الأنظار ! وأقبل الصحفيون والمعجبون على الشاعرة الفذة وتدفقوا عليها بالأسئلة مثل السيل العرم ، لم تسمع من كلّ ما قيل غير صوت صحفي التلفزة وهو يسألها:
- ترى من تكون كاف ... نون ؟
- امرأة من النساء تتقد لوعة وحرقة لمآسي الناس وهمومهم ، وتبتهج ويعانق قلبها البشر لفرحهم و بهجتهم.
- هل كاف ... نون امرأة عاملة ؟
- بالطبع فالعواطل لا ينتجن أدبا.
- أيمكن أن نعرف أين وفي أيّ مكان ؟
- في مملكة المرأة الطبيعية ... في بيتي ! في عش الزوجية المقدس !
... وران على الجمهور المزدحم حولها صمت عارم ... وتسلل بين الأرجل صبيّ ناهز الثامنة من عمره ليمسك بيدها ويقول لها:
-هيّا يا أمي أبي ينتظرنا...
- ويتسللان في هدوء من القاعة وينضمّ إليهما رجل ربعة تعلو سيماه سمرة خفيفة وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ولحيته الخفيفة مضمّخة بدموع الفرح.

معاكسة

أحست باضطراب شديد .. قشعريرة تجلل جسمها من الرأس إلى أخمص القدمين ، أسرعت الخطو ، سمعت صوت حذائه خلفها يقترب منها أكثر ـ تساءلت في نفسها والخوف يملأ كيانها :

- ربّاه ماذا يروم منّي هذا الوغد الحقير ؟.. إنه يتبعني كظلي ! واستدارت فجأة لتغيّراتجاهها ، تقاطعت معه ، رمقته بعين شزراء فالفته يرسم ابتسامة خبيثة على شفتيه ، شعرت للحظة رهيبة أنه يهمّ بالانقضاض عليها .. هرولت وهي تتمتم ربّاه ماذا أفعل ؟ ألا يمنعه حجابي من معاكستي ؟ ألا يردعه حيائي وخفري ؟!

تسمع صوته يدمدم خلفها في صلف:

- انتظري يا حلوة .. لا تحاولي الفرار .

تزداد نبضات قلبها يصعد الدم غزيرا إلى وجنتيها تشعر وكأنها في صحراء قاحلة وهي أمام ذئب مسعور وجها لوجه ، يقترب منها أكثر يحاول إمساك يدها أحست كأنّ حيّة لدغتها ، سحبت يدها بقوة وانفلتت منه لتلج مكتبة مجاورة ، وراحت تتصفح الكتب بعينين زائغتين ، تقرأ عناوين الكتب فلا تكاد تفقه معنى لما تقرأ.. الخوف يسيطر على عقلها و قلبها ، يحوّلها إلى مرجل يفور بالدّم زادتها نظراته الغريبة اضطرابا، لاحظ صاحب المكتبة حالتها فأخذ يتتبع حركاتها ويرصدها بعينين ثاقبتين ، نظرت في الواجهة من الداخل وجدته مسمّرا أمامها ينتظر كالقدر الحتم .. سحبت كتيّبا صغيرا بعفوية من الكتب المعروضة ، ارتعشت به يداها .. فتحته جزافا فوقعت عينها على عبارة رائعة قرأتها في البداية دون فهم ، ثم استعادتها مرة وثانية (لو أهويت على رأسه بحذائك لارتدع) رنّت الكلمات في رأسها كأنّها مفتاح من نور أضاء كل الأقبية المظلمة في نفسها ، أخرجت حافظة نقودها ودفعت ثمن الكتيّب كان عنوانه (يابنتي...) شعرت بشيء من الطمأنينة يتسرب إلى ذاتها ، خرجت

بخطوات ثابتة رافعة رأسها في شموخ ، اعترض سبيلها مرة أخرى غازلها في فضاضة:
- لن تستطيعي النجاة منّي اليوم .. كم فتاة مثلك تمنّعت بادي الأمر طويلا .. ثم خضعت ، آه منكن ، يا بنات حواء تتمنّعن وأنتنّ الرّاغبات! نظرت إليه بعينين حادتين وخاطبته في عزم أربكه:
- أرجوك أن تتركني لشأني وإلا سوف تندم طويلا...
قهقه ملء شدقيه وقال:
- أخيرا نطق القمر.. هذه الخطوة الأولى ! يبدو أنك بدأت تلينين !
- أكملت سيرها دون أن تلتفت إليه أسرع خلفها أمسكها بقوة من يدها وهمهم كالتيس الهائج:
- رجاء لا تعذبيني أكثر !
سحبت يدها منه بعنف .. تراجعت بضع خطوات إلى الوراء ونزعت حذاءها ، رفعته بيدها عاليا ثم انهالت عليه ضربا للوجه والرأس واليدين.. رمقها لحظات في ذهول .. حاول أن يدافع عن نفسه ، ازدادت ضرباتها شراسة ، التفّ حولهما النّاس وراحوا يركلونه بأرجلهم ويلكمونه بأيديهم إنهار سقط كالمغشيّ عليه والضربات تترى على بدنه المرضوض ، وهو يئنّ بصوت مخنوق ! نظرت إليه في سخرية ثم أكملت سيرها بهدوء وسكينة وهي تضمّ الكتيّب إلى صدرها بقوة !

بين أشداق الألم .

هبّت من نومها مذعورة وقد تشنّجت أطرافها ، أحسّت بانقباض شديد يطوّق صدرها المتصدّع من كثرة ضربات الزمن المتلاحقة انسابت نظراتها نحو فراش وليدها الذكر الوحيد بين خمس من الإناث كأنهن أعجاز نخل خاوية ، ثم زحفت نحوه بلوعة واضطراب وكلمات الشيخ القعيد تصلصل في صماخ أذنيها كالفحيح :
" لا ينجي حذر من قدر .. لا ينجي حذر من قدر " ثمّ ينغمس في نوم هو بين الغيبوبة والصّرع إلى أن يتصفّد جبينه عرقا ويضطرب إظطرابة الموت .. ما يبرح أن يستيقظ مردّدا:
" لا ينجي حذر من قدر ، لا ينجي حذر من قدر " ! و تداعب أصابعها المقوّسة العجفاء ، خصلات شعر الصبيّ الذهبية وتسحبه من فراشه بلا وعي لتضمّه إلى صدرها بقوة .. وما انتبهت إلا وهو يئن بين ضلوعها:
- أمّـي خنقـ .. تني !
- فتندّ عن شفتيها صرخة جزع :
- ويلي ! ما قصدت يا مهجتي ما قصدت !
وعادت لتمسح على وجهه برفق ! و بأهدابها دموع متعثرة تأبى إلا أن تنهمل رغم أن الشمس أشرقت ذلك الصباح بأنوارها السنيّة , طامسة كل كوابيس الليل الرهيبة إلا أنّ أمّ علي ما تزال تشعر بذلك الانقباض المفزع في صدرها لا يكاد يتزحزح عنه وعندما أقبل محمود ابن عمّ ابنها ليلهوا معا: كانت عيناها لا تكاد تبرحانهما حتى إذا همّا بالخروج نادتهما في فزع:
- إلى أين تذهبان ؟!
فبادرها محمود :
نريد أن نذهب إلى الوادي لكي نسبح في مياهه الرقراقة هنيهة ثم نعود دون تأخر !
- حسبكما الدار ! ألا تكفي لتمرحا فيها وتأتيا بكلّ صنوف اللعب واللهو.. فإني أخشى عليكما الوادي وغدراته.

قالت ذلك وفي قسمات وجهها إشفاق بين ، وتردّد مفضوح بين خوفها عليهما ورغبتها في تحقيق تشوقهما إلى السباحة في الوادي ، إلا أن الخوف غلب عليها فألزمتهما البيت لا يتخطيان عتباته إلى خارج ..
وفجأة انبعثت الكلمات المصلصلة مثل الفحيح إلى صماخ أذنيها:
" لا ينجي حذر من قدر.. لا ينجي حذر من قدر " فازداد صدرها انقباضا ونفسها توترا وهلعا ، وما إن غفلت عنهما برهة حتى طارا كالعصفورين اللذين يغادران الوكر لأول مرة وقد أسرتهما متعة التحليق في الفضاء الفسيح ، وجريا متلهفين إلى الانغماس في مياه الوادي الباردة وليمارسا لعبتهما المفضلة بالغطس نحو الأعماق واستخراج الحصى المزركش من القاع !
وفي إحدى غطساتهما عندما خرج محمود من لجّة الماء مزهوّا بما يحمله من حصى خلاب ليباهي به ابن عمه علي ، لم يعثر له على أثر..وراح ينادي عليه في كل اتجاه ولكن بغير جدوى، فغطس مرارا عله يعثر عليه في الأعماق ولكنه فشل في أن يجده، فخرج من لجة الماء والتعب يوشك أن يهد قواه ، ونظر في ما حوله بعينين زائغتين وأقعى في صمت ولم يبد حراكا !.
وسقطت القدر من يدي أم علي وهي تسمع هذه المرة كلمات الشيخ المصلصلة كالفحيح تكاد تمزق صماخ أذنيها ، وقد ازدادت قوّة وهز صداها أركان البيت الذي كادت أن تتداعي خشبات سقفه المهترئة:
" لا ينجي حذر من قدر.. لا ينجي حذر من قدر " ولأول مرة ينخرط الشيخ في نشيج يمزق الأكباد ... وانفطر قلبها فهرولت راكضة تلقاء الوادي وقد شعرت بمعاني الثكل تحوطها من كل جانب وشبح الموت يفغر فاه ليبتلع الوادي وما فيه ! .
وتبدى لها من بعيد بضفتيه المرعبتين كأنه كهف مفتوح على الآخرة، والتقت عيناها بعيني محمود وقد أحاطت به جموع الأولاد وبعض الفتيان وهو يقف مرتعشا لا يُبين وتلقت من عينيه دمعتين بليغتين قرأت فيهما كل شئ.. فصرخت..
- وحيد قلبي واثكلاه فيك.. يا مهجتي !
وغابت عن الدنيا مرتطمة بالأرض الندية !.

دواء الخبال.

وقف أمام مدخل الخيمة وقد جلل كتفيه برنس أبيض يلامس الأرض وتوّج رأسه بعمامة صفراء ضخمة وانتعل حذاء جلديا من النوع الفاخر...
أرسل بصره يمسح الأفق متأملا في غبطة منظر الشمس منغمسة في الشفق الأحمر وقد انسابت متهادية نحو المغيب ...ضجيج قطعان الماشية يتهادى إلى مسامعه فيملأها نشوة واغتباطا، ما أروع أن يرى قطعانه تملأ الأرض وهي آيبة إلى مرابضها! ولم يشعر إلا وأولاده أمامه يحوطونه كعادتهم مثل الأسود الهاصرة قوة وشبابا وحيوية فياضة؛ القبيلة كلها تدين له بالولاء والتجلة وترمقه عيون أفرادها رهبة ورغبة ! تمتم بغرور:
" المال و البنون زينة الحياة الدنيا ".
فجأة أحس بألم حاد يمزق صدره أعقبه صداع مريع يدمدم في تلافيف مخه ... كان مثل الجبل الشامخ و هاهو يوشك أن يتهاوى على الأرض... يهرع إليه أبناؤه يمسكونه من كل جانب ... ينتفض تثور ثائرته ينتهرهم في شدة.
- ابتعدوا !
لم يشأ أن يظهر ضعيفا أمام أبنائه وهو القوي دوما ، موفور الصحة وما شعر بأدنى وجع طوال سني عمره الخمسين ! أما الطبيب في ذهنه فهو طرفة من طرف أهل المدينة الكثيرة التي شاعت في حياة الناس مع التطور الحديث وأشكال الحضارة المعقدة السخيفة.
ومع ذلك فهو لم يحرم أحدا من أبنائه التعليم، وأرسلهم إلى المدينة على فترات متعاقبة فكان منهم مهندسان وأستاذ والبقية في الطريق ! ازدادت الآلام حدة وامتدّت إلى القلب فشعر بوخز متقطع ... سحابة سوداء تغمره مثل الليل يهبط فجأة إذا ما الشمس توارت بالحجاب ! حمل مرغما إلى الخيمة ووضع على الفراش الوثير ... تحفه الطنافس، وأصرّ أبناؤه على نقله إلى المستشفى بالمدينة وأصرت أمه على إحضار" عراف " الحي وكان ما أرادت و جاء العراف يخب في ثيابه الغريبة متأبطا كيسا من الخيش فيه صيدليته المتنقلة وبذل كل ما وسعه من وصفات " ولبخات " هي مزيج من عشرات الأعشاب والمعادن وغريب المواد و لكن بغير طائل.

زادت الآلام وتفاقمت الحالـة وشـارف الأب علـى الهـلاك فخضـعت الأم ونزلت عند طلب أبنائها وأخذ إلى المستشفى ! في غرفة برحاء نطفت صفاء وأشعت بياضا ورونقا ، فتح عينيه الذابلتين في وهن شديد ، وعلم تطورات رحلة مرضه في الأيام العشرة الماضية من أفواه المحيطين بـه وأسقط فـي يديـه عندما وقف الطبيب حيالـه وهـو يفرك يديـه فـي أسـى يحاول إخفاءه باصطناع بسمة أمل وتفاؤل:

"لا يأس مع الأمل والله هو الشافي ! "

-" ... الله ... " !

اخترقت هذه الكلمة الهائلة أذنيه وتسرّبت إلى فؤاده برنّـة مميّزة ! فلأول مرة يقف عندها متأملا " هو لم يسجد لله في حياته قط ، لكنّـه مؤمن مثل عامة الناس انتسابا بغير عمل ودعوى بلا برهان ! و جال بخاطره سؤال مرير: " أترى هل يرمقني الله بعينيّ رحمته وأنـا الجلف القاسي الذي لـم ير خاشعا لله في حياته أبدا ؟ "

وسأل الطبيب في وجف:

- ما مرضي على وجه التحديد يا حكيم ؟

صمت الطبيب لحظة في حيرة ثم قال: إنـه مرض مجهول لم يسبق أن صادفته من قبل وكل الأطباء الذين اتصلت بهم عجزوا عن تشخيصه.

وذهل الرجل وسأل الطبيب في ارتعاب:

- " وما العمل يا حكيم ... هل من سبيل إلى شفاء ؟

- الطبّ في تقدم مستمر ولا يأس مع الأمل !

وشدّ الطبيب على يده مشجعا... ثم انصرف متخاذلا. تـاه الرجل بين مضطرم من الأفكار المتناقضة ثم التفت إلى أبنائه في تصميم حديدي:

أريد العودة إلـى مضـاربنا فورا ولـم يملكوا أن يمـانعوا ... فـي الطريـق استولى عليـه قرف شـديد وانتابـه كره للنـاس والأشياء والـدنيا وسـاورته وساوس مريبة:

" ما للأشياء غدت بغير معنى ما للنـاس يخيّلون لـي مثل الأشباح الهائمـة في صحراء قاحلة لا حياة فيها.. الدنيا تسبح فـي فقاعـة كبيرة من الوهـم والسراب ، خمسون سنة سلختها من عمري مرت مثل الطيف ! أبهذه السرعة يفنى الإنسان ويتلاشى ؟

ترى كم من الأيام بقيت لـي علـى وجـه الأرض ؟ أو أنتظر الموت حتـى ينـال منّـي المـرض مبتغـاه وأغـدو أضـحوكة الرعـاء والغوغـاء وربّمـا

اضطررت إلى الاستنجاد بالخدم لقضاء حاجتي أو ابتلاع لقمتي ! كلا إنّ ذلك محال وصمّم في نفسه على شيء مرعب.
في صباح اليوم التالي اجترض ريقه بصعوبة بالغة وهو يستيقظ على وخز الآلام الممضّة تعاوده وبأكثر شراسة من قبل ولم تنفع معها مسكنات الطبيب ولا مهدآته التي وصفها له... تحامل على نفسه وتناول عصا غليظة مديدة توكأ عليها ثم نادى على خادمه وأمره أن يسرج له جواده وطلب إلى راعيه أن يبقى يومه في الحي لأنه سيسوق قطيعه بنفسه إلى المرعى وشده الراعي ! إلا أنه أفرخ روعه لمّا رأى سيّده يمتطي جواده فاعتقد أنه تماثل للشفاء وأنه ينوي التريّض بسوق غنمه ورعيها.
وهام على وجهه في الصحراء يضرب في كل اتجاه وكادت غنمه تشرد في الشعاب ، حتى إذا نال منه التعب منالا عظيما وخارت قواه ترجل عن حصانه ، وأهوى بيده إلى الأرض يأخذ قبضة من ترابها الأغبر وبسط به يده في عين الشمس التي بدأت تميل نحو الغروب وحملق في أشعتها متكسرة على ذرّات التراب وزفر زفرة تطايرت لها قبضة التراب في كفّه وتأوّه بحرقة :
- أوه لك من دنيا رخيصة ، رخص هذا التراب المتطاير هباء في شعاع الشمس !
تراقص شبح الموت مابين عينيه فأنّ مثل اللديغ:
يا له من لقاء مرعب مهول ! ليته يسرع هذا الغائب المنتظر وينهي عذابي الممضّ ويريح قلبي المكدود ! وومضت في خاطره فكرة أنعشته شيئا يسيرا وراح يمسح الأرض بناظريه ثم ما لبث أن سار بضع خطوات ووقف على شجيرة الحنظل فتناول إحدى ثمراتها وفصلها عن أصولها كأنما يريد أن ينهي عمرا من المرارة طغى على حياته:
- فيك الخلاص ممّا أعاني !
وصرخ بأعلى صوته مودّعا حياة الألم والوجع بمثل ما جاءها وقضم قضمة طاش لها عقله وما قوي على احتوائها فمه فلفظها بتأفف وحنق:
- "سحقا ! ما أصعب أن يهرع المرء إلى الموت متجلدا غير خوّار ! "
وعمد إلى الحنظلة فاستخرج لبّها وقوّرها بحيث تغدو مثل القعب الصغير ثم تقدم نحو شاة فاحتلبها في الحنظلة حتى فاضت ورغا زبدها، عبّ منها عبّ غير المشفق ولا الحذر وكرّر ذلك مرارا إلى أن جحظت عيناه واستطار فؤاده , أوشكت أحشاءه أن تندلق من فيه فخرّ صريعا لا يعي شيئا... ومرّ وقت افتقده فيه أهله ، وذووه واستبطأوا عودة القطيع فأخذوا

في شتى الدروب يطلبونه ... وما إن رأوه مسجّى قرب سدرة عظيمة غائصا في بركة من العرق حتى هرعوا إليه مسرعين ! ونقل إلى المستشفى وبعد بضع ساعات فتح عينيه على الغرفة البيضاء نفسها ولكنه شعر هذه المرة كأنما ولد من جديد وسأله الطبيب في حيرة ودهش:

- أي دواء تناولت ؟!
- ولم يا حكيم ؟!
- لقد شفيت تماما !
- وندّت منه ضحكة ساخرة وقال:
- لقد تناولت دواء الخبال.

مخاض في جهنم.

تصعد ثلاث درجات من السلم ثم تهبط ببطء وتثاقل مستندة إلى الدرابزين الخشبي ثم تعاود الصعود مرة بعد أخرى ، حبيبات من العرق تطفر من جبينها مثل حبّات اللؤلؤ تلتمع برهة ثم سرعان ما ينطفئ توهجها عندما تهوي على الأرض منغمسة مع التربة الكالحة ، غمرات الوجع تسري في بدنها مثل التيار الكهربائي الصاعق ، تنطلق في موجات متتابعة من البطن المنتفخ مثل البالون الهوائي ! صوت زوجها المتهدّج يأتيها في توسّل الصبيّ ، حريقا في حلقها يزيد معاناتها شدة :

- تعقلي ! وهيّا معي إلى المستشفى ، أرفقي بحالك وبي وبهذا الجنين المستكنّ في أحشائك ! تغيم الدنيا في عينيها تأتيها الصور المرعبة مثل العاصفة الهوجاء ترجّ جمجمتها:
- "... مشارط حديدية...آلات معدنية معقوفة ، نظرات نارية نافذة ... قلوب من الصلب عليها ران كثيف ... الوجوه الصفراء ذات العيون الطافية فوق محاجرها مثل عيون الضفادع المنفجرة على إثر انتشاق دخينة صبيّ عابث ..."
تتوسل... ترجو ، تسترحم الطبيبة بإلحاح مفرط:
- أبعدي الحديد عني يا دكتورة ، الحديد يمزّق بدني... يخرق أمعائي ، خدّريني على الأقل ... تمهلي قليلا ، أرجوك أريد أن آخذ نفسا عميقا...!
يدا الطبيبة العجفوان تغوصان أكثر وبشراسة داخل الرحم المتلظي ، تنغرز الأصابع ممزّقة كل الحجب الصفيقة ... تحفران بجنون بحثا عن لذة جنونية مبهمة ! تطفر من عينيها دموع منهمرة تمسك بيدي الطبيبة تحاول إبعادها عنها بيأس ...
الوهن يشلها ، يسفح كل قدرة لها على المقاومة فوق البلاط الرخامي ، تصرخ الطبيبة في وجهها بحقد لا مبرر له:
- اهدئي يا.." أنت " لست أول امرأة تلد ... إذا لم تكوني ترغبين في مساعدة طبيبة فلم جئت إلى المستشفى إذن ؟!
- لكنني أكاد أموت من الوجع ... ترفقي بي قليلا لوجه الله ... !
- ترمي الطبيبة المشارط والآلات على الأرض محدثة رنينا وصلصلة مرعبة وتزأر مثل لبؤة جرباء:
- همل...أما كان أحرى بمثيلاتك أن يبقين في أكواخهن القذرة ليلدن مثل البهائم والبغال.. (تذكرت أن البغال لا تلد... جلببتها موجة من الوجع الدفين ، جلجل في أعماق صدرها صوت زوجها):
- أنت بغل... بغل... جدباء عاقر لا ثمرة فيك ولا خصب... وداعا يا دكتورتي العزيزة أنا آسف على السنين الخمس التي ضاعت من عمري معك هباء.
- تقف بحلقها غصّة بحجم صحراء العطش التي أهدتها إيّاها كلماته المريرة، تشبثت فيه بأظافرها:
- أرجوك لا ترحل ...لا تحطم ذرة الأمل المتبقية!
- الأمل ...هه ، إنّ الأمل يا سيّدتي لا ينبت بدوحتك الذابلة !
- وأحلامنا !...

- أكلتها رحمك اليباب !
- وحديث حبنا الأبدي الذي طالما غفوت على صدى نغماته الشجية !
- أضغاث أحلام ورؤى أوهام !
تنتفض مثل الملسوع ... تنظر فيما حولها ترى الممرضات والغرفة البيضاء والمريضة المستغيثة... والرحم المفتوح يعد الحياة بزهرة جديدة...
هي لا ترى من الأزهار غير أشواكها تحسّ بها تنغرز في عمق الفؤاد ؛ فيسيل الدم مدرارا قانيا يميل إلى السواد ، تنظر إلى الممرضة بحقد مهول ، بركة من الدماء بلون الورود تغطي مساحة من البلاط الباردة ، تصرخ في الممرضات أن يمسكن بها بكل ما يمكن من قوة ...وعادت تعبث في رحمها بجنون هادر ! والمستشفى تتجاوب جدرانه بصرخات امرأة بدوية ساذجة جاءت لتجرّب حظها لأول مرة وتضع مولودها على يد طبيبة حاذقة (!) في مستشفى عصري ! وتندفع إحدى الممرضات كالبرق لتتلقف كتلة لحم طرية ينبعث منها صراخ مدو ، يرعد الأرض من تحت قدمي الطبيبة فتحسّ بطعنة حادة على مستوى الرحم، ويأتيها صوت جاف وقاس يدويّ في جمجمتها:
- أنت بغل... بغل ، جدباء ... عاقر لا ثمرة فيك !
ترمق الممرضة شزرا... تودّ لو تغرز المشرط في عينيها تسألها معنفة لم فعلت ذلك ، تجيبها والخوف يطوّقها:
- كاد الصبي يسقط على الأرض ... فأدركته قبل فوات الأوان !
بركان مزمجر يعبث داخل صدرها تصرخ بحنق:
- أو تعلمينني مهنتي أيتها الحقيرة ! تقذف بالقفاز المطاطي في وجهها وتتمتم:
- قذارة... وسخ ، همل ! ثم تنفلت خارجة كالبقرة المجنونة...
هذه المرة تصعد درجة رابعة وتنظر إلى أسفل " ما أبعد الأرض ! كأنها سفح جبل بعيد... بعيد ! " تطلب من زوجها أن يناولها يده ليساعدها على الهبوط ... وما إن تقترب من الأرض حتى تبادره :
- لست حمقاء ... ناد أمّ الخير جارتنا القابلة ، فقد صمّمت أن لا ألد في جهنم بعد ذلك اليوم الأسود أبدا.

صخور صماء.

عندما يهـوي بالمعـول علـى الصـخور الصـماء يشـعر أن زلزلـة الصـخر تسري في عظامه يقف بعد كلّ ضربة يلتقط أنفاسه ويتلفت حوله فيلفي الأعين ترمقه بزراية موجعة وتشف رهيب ، يخيّل إليه كأن شفاههم المغبرة الجافة تهمس في سخرية.
- مدير. ! كان هذا يوما مديرا ...ها...ها...
وتلفّ رأسه غمامة سوداء ويغوص في عمق الذاكرة قبل أربع سنين خلت:
"مكتب فخم زخرفت جدرانه بمنمنمات خلابة ، وغطت إحدى جدره مكتبة فاخرة فيها من الكتب والمجلدات المذهبة أندرها وأفخمها وإن كان لا يحفظ عنوان أي منها ، ولم يكلف نفسه عناء تقليب صفحاتها ، إلا أنه كان دوما يتباهى بها أمام زواره ومراجعيه ويحلف لهم بأغلظ الأيمان أنه اشتراها بمبالغ ضخمة ، وأسدلت ستارة حمراء قانية على النافذة الوحيدة التي تطل على موقع العمل في المصنع ، يمسك بغليونه المصنوع من

الأبانوس ويغمره بين الفينة والأخرى بلهب وقادته التي أهداه إياها أحد العملاء.
ويطرق الباب فجأة وينتظر برهة ثم يصرخ بصوت ساخط:
- أدخل ...
يدلف أحد العمال في هيئة قذرة بعد أن يخلع نعليه لدى الباب حتى لا يوسخ البساط المخملي الذي غطيت به الأرضية وبخطوات مترددة ومضطربة يتقدم نحو المدير ودون أن يكلف المدير نفسه عناء النظر إليه سأله في لهجة شرسة:
- ماذا تريد ؟ أتترك عملك في مثل هذه الساعة وتأتي لتعطلني عن انشغالاتي ؟!
- عفوا يا سيّدي إنما أريد أن..
- ماذا تريد يا ... قذر ... هيّا تكلم ولا ...!
- إجازة..إجازة قصيرة يا سيدي لساعة أو ساعتين أزور فيها زوجتي في المستشفى الذي نقلت إليه بعد خروجي من البيت بقليل !
- سحقا لك ولزوجتك ، ألا يمكن أن تنتظر حتى تزورها عندما تنتهي من عملك.. كفى تسيّبا وإهمالا ، هيّا انصرف.
- ولكن يا سيدي ...
- قلت انصرف ؟
ويخرج المسكين مطأطأ الرأس في انكسار ، وحزن يفلق الصخر ، عندما يهمّ بالخروج من رواق الإدارة يتذكر حذاءه الذي نسيه أمام مكتب المدير فيعود عاديا وقلبه يرتجف خوفا من أن يلمحه المدير !
نشوة المدير لا توصف يسترخي في كرسيه المتحرّك يدور حول نفسه في إعجاب مفرط الكل تحت حذائه يؤدون له آيات الطاعة والخنوع ، وذوو الشأن والنفوذ لا يفلتون أية مناسبة مهما كانت تافهة إلا ويهدونه فيها الغالي الثمين بدءا بالساعات الذهبية والرحلات المجانية وانتهاء بالسيارات الفاخرة من آخر طراز.. هو يذكر نصيحة أحد الموظفين البسطاء عندما قال له ذات مرة وقد رآه يغرق في خيلاء قاتلة:
- يا ولدي نصيحة لوجه الله ، تدارك نفسك قبل فوات الأوان ، كم من مدراء رأيت من قبلك استسلموا لموجة التيار القوية فرفعتهم إلى الذروة حتى إذا ظنوا أن لا أحد فوقهم هوت بهم إلى القاع السحيق فتدارك نفسك... قبل فوات الأوان !
أجابه بكل قحة وسفالة:

- حسن وسأكون آخر مدير تراه ...أنت مفصول !
ورنّت قهقهة صلفة في أرجاء البهو الضيّق !
الصخرة الصماء تأبى أن تستسلم لضربات المعول الفالقة ويسري رجف المعول في ذراعيه فيوهنهما.. يصرخ فيه أحد الحراس مهددا بسوطه ويحثه على العمل بجد !
- آه للزمن الخائن... إن مثل هذا الحقير كان يلعق عقب نعلي من أجل أن أنفحه نظرة رضا واحدة!
فجأة تسكن الجلبة وتكفّ المعاول عن الضرب . وينادي مناد !
- المدير..المدير !
تأخذه لوهلة نشوة أليفة لديه كاد ينساها ويحسّ بالزهوّ والخيلاء ثم ما يبرح أن يعود لوعيه على أثر ضربة سوط من الحارس الواقف قبالته وهو ينهره بامتعاض:
- اعتدل يا نذل.. المدير قادم.. اعتدل.
وينظر جهة اشرئباب الأنظار فيرى فتى في العقد الثالث من عمره يمشي بين دزينة من الحراس وسط المساجين العاملين في تكسير الصخور... وهو ينظر شزرا حتى إذا حاذاه رمقه بنظرة لاهبة ، فإذا به يردّ عليه بمثلها، فتنتفخ أوداج المدير وتحمرّ عيناه.. ويدنو منه كالأسد الهصور ثم يسأله في سخرية:
- من أنت ؟
تتملكه عنجهية قديمة ويسري تيار راعد من الكبر في نفسه ويجيبه بزهوّ:
- أنا المدير.. أنا المدير !
يدهش مدير السجن لحظة ويميل برأسه على أحد أعوانه مستفسرا ، ثم فجأة يقهقه:
- مدير.. مدير سابق ! مرحبا سيادة المدير.. ضعوه في السجن الانفرادي عشرة أيام بلا طعام ! و اربطوه إلى أريكة وثيرة حتى يمارس مهامه على أكمل وجه..هاه مدير!
ثم يمضي.. وسرعان ما يرتفع صوت وقع المعاول على الصخور الصماء !

الإعصار

أذكر ذلك اليوم مثلما أذكر يوم مات أبي وولد ابني الأول في ساعة واحدة من الدهر..كان الزمن عصرا والشمس تلملم أشعتها للسفر نحو المغيب.
هدوء مريب ران على قريتي الصغيرة.
وحتى الحمامات البيضاء التي كانت تبدو في الأفق بين الفينة والفينة اختفت منذ الصباح ولم يبق في أديم السماء سوى تلك الشمس اللاهبة التي تكسرت حدة أشعتها شيئا فشيئا ! وما راعني إلا صوت الشيخ علون يقرع بعصاه طريق الإسفلت الوحيد الذي يغطي شارع القرية الكبير.. وما كدت أبادره بالسلام حتى عاجلني وهو يضع كفه أفقية على جبينه ويمد بصره نحو الأفق البعيد.

- يبدو أن كارثة عظيمة ستحل بقريتنا اليوم.
- كارثة..! ! ماذا هنالك يا عمي علون ؟
- الإعصار ؟
- أجل الإعصار الكبير إعصار الموت والفناء مر منذ ما يزيد على نصف قرن من الزمان بهذه القرية ذاتها فتركها قاعا صفصفا.. وهاهو اليوم يلوح في الأفق مبشرا بزيارة هالكة ..!

وتطلعت نحو الأفق مليا وما رأيت شيئا.. فالتفت نحوه وتفحصته من رأسه حتى أخمص قدميه فألفيته هو هو عمي علون لم يتغير فيه شيء

سوى لهجة صوته الحزينة ... الشاش الأصفر فوق الشاشية " التونوسية " والشوارب الكثة المفتولة في عناية بالغة واليدين الغليظتين يكسوهما شعر أشقر يميل إلى البياض و" القندورة " العربية الفضفاضة وساعة الجيب الفضية التي تدلّ عليها السلسلة الطويلة المطوقة لنصف الصدر.. والخيزرانة الصفراء المشربة ببقع سوداء وتنتهي بمقبض من العاج..
سألته في دهشة:
عن أيّ إعصار تتكلم.. فإني لا أرى في الأفق شيئا ؟
تبسّم في إشفاق وقال:
- عيونكم شباب اليوم كليلة.. فلا ترى أبعد من موقع الأقدام..أنظر هناك في الأفق البعيد جهة الغرب , ترى ميلاد الإعصار الكاسح لو كان أبوك عبد الرحمن حيّا لحدثك عن أهوال يشيب لها الولدان.
نظرت ثانية مدة أطول وما رأيت سوى فتائل شمس شرقية ذابلة ؛ تكاد تنطفىء في الأفق الغربي.
- إمّا أنّ عينيّ كليلتان كما تقول أو أنك ترى بعينين غير عينيك اللتين في محجريك!
- أنظر بعينيّ قلبك...أنظر ببصيرتك!
وولى دون أن يضيف كلمة , وخيزرانته الغليظة تدقّ إسفلت الطريق الكبير في قريتنا كأنما تريد أن تكشف عن التربة الاصيلة التي طوت أجداث الأجداد ومآثر الأولين.
في المساء قبالة شاشة التلفاز جلست جاحظ العينين مضطرب الأنفاس وأنا أشاهد صورا لإعصار رهيب ضرب مناطق قريبة من قريتي الصغيرة ويوشك أن يدهمها في ساعات هرعت فورا إلى زوجتي وأبنائي الكتاكيت وأمرتهم بحزم حقائبهم والتجهز للسّفر فورا.. وما إن هممنا بالخروج من باب منزلنا الكبير حتى ألفينا عمّي علون يقف أمامنا مثل الطود العظيم وهو يدمدم:
- إلى أين السفر.. إلى أين ؟! إلزموا بيوتكم فالإعصار يجتاح كل مكان...الإعصار يجتاح كل مكان ! وقفنا مشدوهين لا ندري أين نتجه!

عنفوان ووهن.

دخل ترعد فرائصه وترقص قدماه وهنا وسالت دموع عينيه لما صفقه من صفعات البرد المزمجر .. نقل بصره الكليل في المكان ، كأنما يبحث عن شباب ولى فهو يتعقبه في كل مكان ، وعبثا يحاول الإمساك به أو إدراك بعض عنفوانه القديم ، وسقطت عيناه عليّ متعبتين مريضتين فقدح فيهما وميض خافت ، أطفأت توهجه رياح السنين العاتية، فهو يحيّ على ذكرى مندثرة أو على طيفه المذروّيّ في القفار النائية ، وبادرني مخاطبا. كأن له بي معرفة سلفت، و لعله رأى في بعض ما يبحث عنه من صورة الفتوّة وقوة الشباب العتيد !

- إيه بنيّ.. لا تحقرنّ عمك هذا الذي ترى أو تقل شيخ فني ونخرت الأيام عظامه المنتصبة بالكاد على أورام وأوهام ! لا ! لا تقل ذلك ، فعمك الذي ترى جاءت عليه أيام وما يرى في الدنيا له ندّا أو نظيرا، كنت أجمع كفيّ حين أجمعهما وأدفعهما نحو الجدار فأصدعه وأهزّ أركانه ، إنّ قنطارا من القمح والشعير كان عندي كبضعة أرطال ألاعبها بين يدي وأقول في سخرية: ما أخفها ؟! واليوم أنا كما ترى.. ! وطأطأ رأسه أسفا وتحسّرا.. ورفعه ثانية في شبه عزم متجدّد يحاول به قهر اليأس والخيبة ، مضى عليّ خمس وعشرون من العمر لم أمرض خلالها قط حتى قلت لنفسي في لحظة بطر واعتداد غبيّ ويحي ما هذا الجسم الصلب العنيد ؟ ألا أصاب بمرض أبدا ، ألا أتذوّق لوعة العلة وطعم الداء ولو مرة واحدة ؟! أصخر أنا ؟ أجلمود من جلاميد الجبال العاتية ؟!

و أخذ الدهر مني كلّ مأخذ إلى أن ظننت أني مستعص على المرض بعيد المنأى ! و يوم أصبت بوعكة عارضة وكان ذلك خلال أيام الثورة التحريرية المباركة ، كنت طبيب نفسي فقد جمعت أغمارا من الشيح

وأضرمت عليها نارا حتى غدت جمرا يتلهّب ونارا تسّعر ، فغمرته بالتراب وجعلت عليه سترا كمثل الخيمة الصغيرة ثم استلقيت فوقه حتى تصبّب منّي ما شاء الله من العرق ، ثم نمت على ذلك فلما استيقظت في الصباح الباكر شعرت كأنني ولدت من جديد ، وما نالني بعدها أذى أبدا إلى يومنا هذا.. وصمت في حزن عميق.. وأرسل آهات متلاحقة كأنما يمد بعضها بعضا مدا متكلفا، لتكون الآهة أقوى من المرض.. وعبثا يفعل !
وسألته في عجب وفضول:
والآن يا عم ما دهاك ؟ وما الذي ...؟
(وكدت أقول: ما الذي نخر عظامك وزعزع كيانك ؟).. أقصد هل أنت مريض ؟
وشال يديه بعيدا:
أتسخر منّي يا فتى أنا اليوم ميت..أنا فان .. أنا تراب مركوم ينتظر أن تذروه ريح الردى ! وصمت ، وتكلمت جدران غرفة الانتظار التي جمعتنا في إحدى العيادات ، وكان كلامها حكيما وعميقا لم تعبر عنه بكلمات ، ولكن بسكون مهيب أضفى عليه جلال الموقف وقارا وحكمة ! وفهم الشيخ وفهمت.. فقد رأى في عمره الدابر وأسف إذ لا عود على بدء ! ورأيت فيه عمري القابل إن قدّر فاقشعرّ منّي الجسم واستنفرت الحواس وأرعش القلب.. وكادت دموعي تنهل ، فحضرني بيت من الشعر زاد من كربتي ولواعجي فتحرّكت به شفتاي مرغما:

شباب كأن لم يكن   وشيب كأن لم يزل

وجاء دوري في الفحص فقمت متجها نحو غرفة الطبيب وقد وليت الشيخ وقصته ظهري.. ولكن صورته بقيت ماثلة كالهرم المتهدم الذي أسفت عليه الرياح رمالها ، فدفنت بقاياه فهي مغمورة غائرة في الأعماق أو تكاد !

سرّ السنديانة العجوز.

سرّ الظلام أشدّ الأسرار إثارة وأكثرها استفزازا للأذان المستوفزة لكنّ الزمن أثبت بتطاوله أن لا مقبرة هناك للأسرار ، إذا أسفرت الشمس صباحا وغسلت الكون من أدران الليالي.
الطبيعة ذاتها تهمس بأسرارها في كل لحظة وفي كل مكان... وجوه البشر بصلابتها ومرونتها وترهلها وحيوتها وجميع صفاتها التي لا تحصى ، توشوش بعضها بعضا بأسرار نفوسها مع أول نظرة تلقي بها نحو حظيرة المجتمع البشري الضاجّ بالحياة والألغاز.
أدركه الليل البهيم وهو يخبّ في مشيته بحثا عن الشجيرة النادرة... الأحراش تترآى له مثل الأشباح الأسطورية.. لم يعد هناك مجال للسير أكثر لاسيما وأنّ عيونا مضيئة بدأت تترامى إليه بين الأشجار والحشائش البرية ، عمد إلى سنديانة هرمة امتدت في الفضاء كأنما تريد الانطلاق نحو القمر الذي تبدّى منذ هنيهة في الأفق الجبلي الداكن ، واستطاع أن يجد له مكانا بين الأغصان الغليظة والمتشابكة يصلح لقضاء ليلة آمنة ، وربما حظي فيها بغفوات مريحة.
وبدل الذئاب المتوقعة لاح له شبح أشخاص ثلاثة خرجوا من بين الأدغال يمشون في خطوات حذرة وأصوات هامسة.. أرهف سمعه وزوّى مابين عينيه ليرى بدقة ، ويتبيّن هؤلاء الذين تهادوا في غبش الظلمة – بلا شك – لأمر يراد ، وشدّ انتباهه حركات غريبة بدت تظهر عليهم ، اثنان منهم

يمسكان الثالث ويشدّانه بحبل متين ، سحبه أحدهما من تحت جلبابه الغليظ ثم تقدما به يجرّانه بعسر نحو السنديانة العجوز وهو يجاذبهما بعنف..
صرخ الرجل المقيّد بتوسّل:
- لماذا يا أخويّ..؟ كيف نسيتما العشرة والملح وأيام الصّبا الرّائعة..؟
لكمه أكبرهما بمجمع كفه في كتفه وهو يدمدم:
- امش يا أحمق إنها الدنيا لا تبقي على شيء ثابت ، أنت نفسك لو أمكنك أن تفترسنا لما أحجمت إذا ما لاحت لك غنيمة دسمة تسعدك بقية عمرك ، وتنتشلك من دوامة الفقر والمسغبة.
أضاف الثاني بسخرية:
امش يا رفيق الطفولة فلا طالما شكوت لي مرارة الحياة ، سنريحك منها إلى الأبد..
كاد عاشور يهوي من فوق الشجرة بسبب المفاجأة المذهلة – إنه يعرفهم ثلاثتهم – تمسّك بفروع الشجرة أكثر، حبس أنفاسه التي تلاحقت في اضطراب وأرهف السمع وأحد البصر ، جاءه صوت "ربيع " راعشا مرعوبا:
خذوا المال كله سمْحة" لكما به نفسي ولا تثريب ، واتركاني أحيا لوجه الله الكريم..
لم يتمّ توسّله المرير إلا وقد مرّت شفرة الخنجر" البوسعادي "على عنقه فتدفق الدم شخّابا ، آخذا من لون الظلمة جلبابا يلفع خيوطه المنبعثة في شكل أفقي ومتناثرة على الأرض رشاشا ثقيلا ترفض التربة رشف قطراته الحامضة.
انتفض الجسد الراعش بضعة دقائق ، حاول معها مقاومة البرود القاسي الذي بدأ يكتسح كل خلية فيه ، وفي انتفاضة أخيرة تمزق الحبل الذي شدّه إلى السنديانة وهوى على الأرض منغرزا في التربة الغضارية.
امتدّت الأيدي الأربعة لتدحرجه بضعة أمتار بعيدا عن الشجرة ، ورمت بالجثة في كهف أرضي عميق لا تستبينه عين الناظر لأوّل وهلة برغم انتشار أشعة القمر السّنية والتي بدأت تفضح تفاصيل المكان رويدا رويدا.. ونفض الرجلان أيديهما بعدما أهالا على آثار الدماء حفنات كبيرة من التراب ، مخفيان معالم جريمتهما الخسّيسة ثم وقفا لحظات عند الشجرة يلهثان ، وقد طوّقهما صمت رهيب.. وبعد فترة طالت كالدهر الطحون قال أصغرهما:
- ماذا نقول للعجوز أمه ؟

- ما رأيناه وما التقيناه.
- لقد سمعتنا نناديه عشاء.
- إنما غيرنا من ناداه فإذا ظننتنا نحن فهي واهمة.
- حسن أين المال ؟
- ها هو ذا.
- لقد هيأه ليكون مهر حياة جديدة فكان مهر الموت الأبدي.
وبرقت على أسنانهما لمعات ابتسامة صفراء ماكرة ، ثم انطلقا يخوضان في غمرة الليل ويحملان سرّا عظيما عزما على كتمانه إلى الأبد.
بمشقة بالغة انزلق عاشور من فوق السنديانة العجوز وقد نسي الشجيرة التي يبحث عنها ونسي أباه المريض الذي تركه يتوجّع منتظرا عودته بالأوراق الجافة التي تذهب المرض وتزيل العلة من جذورها.. مشى بخطوات متثاقلة كأنها منتزعة من طين الأرض انتزاعا وما إن ابتعد قليلا حتى سمع صوتا رعيبا خلفه ، التفت منخطفا فألفى السنديانة متمرّغة في التربة الغضارية محاكية جسد "ربيع " ليلة البارحة.. انذهل للمنظر مدة غير قصيرة ثم ما برح حتى واصل طريقه نحو قريته الغافية في صمتها الطويل.
بعد نصف يوم من السير البطيء ودون توقف لاحت له البيوت الطينية، وقد سكن أهلها وأخلدوا إلى راحة الظهيرة المقدسة وكأن لم يبرزوا من بيوتهم قط.
امرأة واحدة لم تركن للراحة ولم يلامس جنبها فراش.. وقفت حافية القدمين مكشوفة الرأس وفي عينيها المتغضنتين تساؤل حائر عن شاب يافع خرج من بيتها مساء ليمهر عروسه ولم يرجع في موعده المنتظر.
وما إن لاح شبحه حتى هرولت نحوه لتمطره بأسئلة صعبة كان يحاول طوال الطريق أن يهيء لها أجوبتها مسبقا.. لكن ما أعدّه وزوره في صدره من كلام يخفف به عنها وقع الصدمة ، تبخّر في لحظة أبصر تلك الدموع في عينيها تترقرق وجلة ، فانفجر بالحقيقة مثل طفل ساذج لا يقوى على إخفاء سر:
- قد قتلاه يا خالة.. قد قتلاه غدرا وخسّة.
وهوت سنديانة أخرى متعفرة بتراب القرية الغارقة دوما في صمتها الطويل.

جذور على السطح.

من نافذته الواسعة يرقبهم كل صباح و هم يحملون المعاول على أكتافهم مشمرين سراويلهم ومتجهين نحو الحقول المنبسطة على السهل الكبير، يأسره منظرهم ذاك، يكاد يقفز من كرسيه المتحرك لينظم إلى جمعهم فيشاركهم نشوة التبكير إلى الأرض المعطاء ، والتمتع بألوانها الزاهية التي تعرض مفاتنها على روادها بلا تمنّع أو دلال..
لكم اشتاق لشذى تلك الأزهار وعبير الورود ، ونسمات الصباح العطرة وحتى الفراشات التي تستفزه بإقبالها وإدبارها في طيش واضطراب ، وهو منهمك في تنقية الأرض ممّا قد يحيط بالمزروعات من الحشائش الضارّة أو النباتات الطفيلية التي تسلبها غذاءها عنوة دون أن تكون لها ثمرة منتظرة أو فائدة ترجى... تماما مثل هذا الجيل الجديد.
ولا يدري لم تمثلت له في هذه اللحظة بالذات صورة أبنائه الأربعة..؟ ويسرح الخيال به بعيدا..
بعيدا إلى بضعة سنين خلت عندما كان يشق مرارا بطن هذه الأرض بمعوله القصير ، فيستخرج من كنوزها الخضراء ما يمتع ويسر ... وتذكر كيف كانت كفاه اليابستان المخشوشنتان تعلو زنديهما سمرة لطيفة تقربهما من لون الأرض ، وتربطهما بها صلة عتيقة لا تنفصم.
طرق خفيف على الباب يوقظه من نشوة الحلم الأخضر ، ويدخل محمود أوسط أبنائه:
- صباح الخير يا أبي كيف حالك الآن ؟ هل خفت عنك الآلام ؟

يرسل الشيخ زفرة عميقة ثم يقول :
- ليست آلام الجسد التي تخيفني وتضعضع كياني ، لقد نشأت منذ صغري على التعب والمشقة ورضعت المعانات مع قطرات حليب أمي التي امتزجت بدموعها وآهاتها ، فغرفت في جسمي مع الحليب بذور الصبر وقوة الاحتمال ، فقد كانت جدتك – رحمها الله – تعيل ستة من الأبناء أطرياء العود لم يتجاوز أكبرهم الثالثة عشر من عمره ، بعد التحاق جدك وإخوته الثلاثة بالجبل ورغم ذلك علمتنا كيف نحصل على قوتنا بزنودنا ، ونأكل طعامنا بشرف وعزة وإلا بتنا طاوين نستنكف عن استجداء أحد.
بدأ محمود يبدي تأففا وضجرا من هذا الدرس الصباحي ، الذي لا طالما سمعه من أبيه، وهو يعرف تماما ماذا يرمي إليه من وراء ذلك ، إنه يريده هو وإخوته أن يلتفتوا إلى خدمة أرضهم وفلاحتها والعيش بكرامة بدل التسكع في الشوارع وانتظار الوظيفة التي قد لا تأتي أبدا وكم حاول مرارا أن يفهمه...
إنهم جيل آخر خلق لزمن غير زمنه ، وإنّ لهم أمالا وطموحات أكبر وأشرف من أن تلوّث بطين الأرض وتدفن في تربتها..
وأراد أن يخرج من المأزق بأية وسيلة وحيلة فجعل يتملقه قائلا:
- حقيقة الأرض هي مصدر العطاء الدائم ومنبع الخيرات الفياضة ولو أننا تمرسنا على خدمتها وصلب عودنا فوق أديمها لقدرنا على مصانعتها وإعطائها ما تستحق من عناية ورعاية...
- الأمر سهل ميسور وبسيط للغاية ، والوقت لم يفت بعد ، لكم أن تتعلموا وتتمرسوا وخذوا الوقت اللازم لذلك ، فقط لا تدعوا أرضكم بورا تنعق فيها الغربان..
- كلامك حكيم وصائب ، ولعلنا نفعل ذلك يوما ما(ثم صمت لحظة وأردف):
ولكنني الآن في عجلة من أمري... وأحتاج إلى..
ورفع الأب كفه مسكتا إياه وقد أسقط في يده:
- أعرف ما تريد خذ المبلغ الذي تحتاجه من جيب سترتي ، إنك لا تعي من الطلب كل يوم ، ولكن يوم أن ينفد ما في الجيب تعضّ أصابع الندم، وتبكي دموع الحسرة وتدرك قيمة ما كنت به أعضك.
سقطت كلمات الشيخ المتمرّس عند قدمي ابنه ولم يعقل منها شيئا ثم تلقف المال بخفة وانصرف للهوه غير آبه بمخبآت المستقبل..

ودخلت الأمّ بالشاي إلى الغرفة فألفت زوجها ما يزال في جلسته الصباحية ، يرمق الحقول الخضراء الفاتنة من بعيد ، فداعبته قائلة:
مازالت هذه الضّرة تستولي على قلبك وتشاركني فيك حتى بعد أن هجرتها وانبت مابينك وبينها من سبب.
- كلا و الله ما هجرتها إلا مرغما فإن يكن جسدي عنها بعيدا فقلبي بها معلق وروحي تتمرغ كل صباح في ثراها الندي وتنتشي بعبق روائحها الزكية.
- كفى.. كفى يا رجل لولا أننا بلغنا من السن ما تعلم ، لغرت عليك و لأحرقتْ نار الحسد قلبي.
- بل لولا علمي بأنك أشد الناس حبا للأرض وارتباطا بها لصدقت مداعبتك اللطيفة هذه.
- ولكن ما الحيلة وقد صرنا في زمن ينكرنا و ننكره ، وأفضى بنا العمر إلى ما ترى من العجز... (وتنهدت بعمق ثم أضافت فيما يشبه اليأس والحسرة)... والوهن.
وساد صمت مريع للحظات تحدثت فيها أنفاسهما المترنّحة بين الشهيق والزفير... ثم استدرك الشيخ فيما يشبه الثورة التي أوشكت أن تكتسح السكون:
- لا لا ؛ عجز البدن مقدور عليه ووهن العظام الصبر يسكّن آلامه ولكن الروح... الروح مازالت متوقدة في شبابها الأول ، تبعث الحركة والحياة من حولها ، ولابدّ أن تستنهض الهمم الراقدة.. ولابدّ أن يستلم الجيل الجديد الرسالة إن عاجلا أو آجلا ...
وعندما اجتمعوا في المساء على مائدة الطعام ، كان الوحيد الذي لم يلتحق بهم هو الأب ، فالتفت بعضهم إلى بعض في حيرة وقلق.. ثم استقرّت نظراتهم على الأم... فانفرطت من عينيها دمعتان ساخنتان ثم غمغمت:
- أبوكم ذهب إلى السهل الكبير وقد أخذ معه المعول..
فغر الجميع أفواههم في دهشة وصرخوا:
- كيف..؟ كيف..؟ وهو قعيد كرسيه لا يقوى على النهوض.
- لا يهم كيف.. ولكنه ذهب.. وإن لم تدركوه هلك.
وهب الجميع وقوفا واتجهوا صوب الباب.. ثم نزلوا درجات السلم في خطوات سريعة وتركوا باب الدار مفتوحا ، فهمّت الأم بغلقه ولكنّ يداها لم تطاوعاها ، فتركته كما هو واتجهت صوب النافذة، لعلها ترمق أشباحهم خلال غلس الظلام الباسط كنفه على المدينة.

رجل محير...

التاريخ جنّتي والثقافة بحري الذي أتنفس ماءه ، وإذا قلتَ:
ـ والأدب ؟
ـ قلت هيت لك نعاقر خمرة الرحيق المختوم ، وماءً غير آسن قلت ألا ترقص الآه بصدرك ؟
ابتسم في صفاء وقال:
في خضم التعب تأتي لحظة التجلي وأسافر إلى آفاق الحبور ، وأمداء الانتشاء إنها الخمر المعتقة التي لا يغيب العقل بها ولكنه يولد صبيا يتكلم في المهد.
يروح.. يجيء يفكر يتأمل برهة وجيزة ... يسأل هذا ويستفسر ذاك يجيب إن عجز الآخرون عن فضّ أقفال المغلقات... يغدق بسخاء ، يد نديّة وروح تذوب مثل الشمعة لكنها لا تذوي ولا تفنى بل تتوهج مع مطلع كل فجر.
مرّة حدثني عن طموحاته .. عجز ذهني عن استيعاب كل ما قال ، وفي النهاية عدت بصورة جدّ مركزة لمشهد حي: رجل ينضب جسمه في وهج الشمس ويوقد نارا لقرى المثقفين والأدباء ويدعوهم إليها بطلقات من نار بندقيته الإبداعية كما يفعل ذلك البدوي في قصة " القبيلة ".
روح القرى تسري في عروقه ، وما زلت أذكر عندما كان يأخذنا ونحن طلبة في الثانوي ويطعمنا ما تيسر ، برغم أنه كان طالبا مثلنا ولا مسؤولية عليه أو بين يديه ما يجعله ينفحنا بتلك المكرومات ولكنها روح القرى تتأجج في نفسه.. لقد أقرانا بعد ذلك مرات ومرّات ، بعدما تيسر الحال إلا أن طعم الخبز الأول ما يزال في أفواهنا ؛ ذلك لأنّ له نكهة تشبه رائحة شواء الفرس الحاتمية.
ومن عجيب ولا عجب أن يقرن بين الشجاعة الأدبية والتواضع.. فهو فارس حلبات النقاش بلا منازع وهو رقيق الخلق يألف ويؤلف من أول لقاء وإذا غضب فغضبة بسكرية تشبه انتفاضة العامري في الزاب..

هذا وبعد فأنا لم أرسم ملامحه الخارجية لأن ملامح النفس أولى وإن كان لا مانع أن أقول بأنه أسمر ، عسلي العينين مستدير الوجه قليلا ، عندما يبتسم تشعر أنك تعرفه منذ دهور...
بساطته تسحرك ، تطوّق كيانك إنها أشبه ما تكون ببساطة النخلة السامقة إذ تعرج في السماء متألقة بثمرها الذهبي ولا تستنكف أن تمنح بسخاء كل مسترفد أو حتى عابر سبيل..
قلما رأيته غاضبا ومما يغضب وقد اشرأبّ للدنيا بقلب طهور وصدر مفتح لا يبيت على ضغن أو حفيظة.. أرأيت الشمس وهي تغمر الكون بسناها لا تحبسه عن شيء..
أرأيت الماء وهو سرّ الحياة ينهمر دفاقا مبذولا لكل أحد ؟..أرأيت الهواء وهو ينتشر مباحا تستنشقه الصدور وترتخي به الأعصاب..؟
إنه صنوها الذي لا يضاها.
أتراني بالغت فيما قلت ..أو صوّرت غير ما رأيت ربما ؟.. ولكن تلك هي حقيقته في نفسي وشخصه الساحر في أعماق شعوري .

شاي عمّي أحمد !

شـاي عمّـي أحمـد مشـروب سـحري ذو تركيبـة سـرّية ، مصـدرها شـجرة برّية ليست ككل أشجار الشاي في العالم .
كل الذين تذوّقوه أكدوا تلك الحقيقة البيّنة ، في البدء لم أصدّق أقوالهم إلا أنني بعدما تغرّبت وطفت أنحاء العالم ورأيت كثيرا من المدن والقرى الرائعة وتذوقت صنوفا لا تحصى من الشاي الموجود في الدنيا عرفت الفرق بين شاي عمي أحمد وشاي بقية بقاع الكرة الأرضية.
قد تقولون أنه يتقن إعداده وأنه يحسن اختيار نوعيته فإن كل ذلك صحيحا إلا أنه غير كاف ليجعله أفضل شاي يتذوقه المرء.
فـي دكانـه الضـيّق جـدا والمـزدحم بأكيـاس البقـول والتوابـل ينحشـر رواد مقهـاه العجيـب ، الجلـوس طبعـا علـى الأرض أو فـوق أكيـاس الخـيش المهترئة في أفضل الأحوال غير أن الرواد لا يشكون...لا يتبرمون ، لا يطلبون تحسين الوضع كل ما يريدونـه مزيدا من أكواب الشاي وسماع قصص عمي أحمد ، أجل قصص عمّي أحمد فإنه بالإضافة إلى مشروبه السري " الشاي الأخضر " فإنّ لعمّي أحمد مخزونا لا ينفد من القصص والحكايات الطريفة والعجيبة التي تسري في أسماع الناس الملتفين حولـه مع سريان رشفات الشاي في أبدانهم.
ربّما قلتم "أنت تبالغ ' لكم الحق ، أنتم لم تذوقوا شايه ! ولن تذوقوه لأنّ عمّي أحمد لم يعد من أهل عالمنا الموحش منذ أمد بعيد وآخر ملامح أذكرها عنه ، أنه كان شيخا نحيفا ، ذا شاربين كثين قد ابيّض شعر رأسه ونقش الدهر على وجهه خطوطا متعرجة ، يضع على جسمه معطفا ثقيلا ويلبس سروالا فضفاضا لا يرضى بغيره بديلا من السراويل الحديثة والتي يسميها (أبو طويل) إنه يقول عنها أنها فاضحة ولا تستر العورة ويتحسّر على زمن مضى كان فيه الحياء هو التاج الذي يكلل رؤوس الرجال والنساء على السواء !
دخلت عليه دكانه وهو يصب الشاي في كوب كبسولة (آثر الأكواب عنده) ثم يعود فيسكبه في البراد حتى يستوثق من أن السكر قد ذاب تماما ، وذلك طقس من طقوس إعداد الشاي لا يغيّره أو ينساه مهما استعجله زبائنه أو ألحوا عليه في الإسراع !

احتضنني بعينيه العسليتين اللتين تفيضان بشرا وألقى عليّ سؤاله مباشرة دون تمهيد أو مداورة !

- أراحل أنت ؟
- حركت رأسي في أسف وقلت: أجل.
- أتترك أرضك وأرض أجدادك لتعمر أرض " الأعداء " ؟
- أجبته بسذاجة أنني ذاهب إلى هون كونغ وليس إلى فرنسا! لكنه لم يكن يسمع بهذه البلاد قط .

قال: إذا وصلت هناك وصادفك أن دخلت سوقهم وعثرت في طريقك على شاي أخضر جيّد النوعية أرسلْ لي بكمية منه !

إنّ مطالب عمّي أحمد من النوع الذي لا يرفض أبدا وهو دوما يطعّمها بمثل هذه الكلمات (إذا صادفك ، إن وجدت ، إن قدرت ، أو أمكنك). دلالة على أنه لا يريد أن يحمّلك مشقة أو عسرا ! ثم إنّ عمّي أحمد منذ أكثر من ثلاثة عقود من الزمن لا يغير نوعية شايه إلا نادرا وفي حالة ما إذا تغيرت النوعية في السوق رغما عنه ! السرّ إذا ليس في خصائص الأوراق التي يستعملها ، السر كامن في نفس عمي أحمد ذاته.

ولا تتصوروا أن مقهى عمّي أحمد مقهى بالمعنى الشائع والمعروف ، هو بخلاف ذلك تماما ، إنه يبيع البقول والتوابل وأشياء أخرى لا علاقة لها بالشاي وإذا اشتريت منه أو حتى لم تشتر لابد أن تذوق كأسا من شايه الأخضر مجانا دون مقابل فهو لا يتلقى مقابلا عن الشاي أبدا.

ورواد دكانه لا ينقطعون عنه في أي فصل من فصول السنة ربما ازداد عددهم في فصل الخريف حيث تكثر الحركة والنشاط في البساتين القريبة لأنّ الموسم موسم التمور ، أما حكايات عمّي أحمد فإنه يخيّل للناس أنها لا تستساغ إلا بكؤوس الشاي الأخضر فإنها تغزر وتزداد دفئا وغرائبية في فصل الشتاء حيث يكاد يختنق المكان بالمستمعين ، وأغلب القصص التي يرويها عمي أحمد متداولة ومعروفة ولا تخرج عن ليالي ألف ليلة وليلة أو قصة عنترة أو ملحمة سيف بن ذي يزن ومغامرات السيد علي التي سجلتها المخيلة الشعبية خصوصا تلك المتعلقة بصراعاته مع الجن والعفاريت ومخلوقات العوالم الخفية ، السرّ هنا أيضا لا يكمن في جدة الحكاية أو نوعها ، السرّ يكمن في طريقة السرد التي يلقي بها عمي أحمد حكاياته ، إنها سلسة للغاية ومساغة بشكل مدهش إنه يحكي كأنه هو بطل الأحداث أو حاضر في أوقاتها ، ولو قدر لعمي أحمد أن يقرأ أو يكتب لكان من أعظم الروائيين في العالم ، إنه لا يقول للوردة يا ذات الخدين

الأحمرين والأكمام القرمزية ، إنه يقول لها بكل بساطة: يا وردة غير أنها تخرج مع نبرات صوته وحركات وجهه وإشارات يديه وابتسامته الطلقة وكأنها محملة بكل الصور البيانية الموجودة في لغات العالم فيفهم منها الصغير أبدع ما يفهم ، كما يفهم منها الكبير أروع ما يفهم ! إنها لغة لا يمتلكها إلا عمي أحمد !

في آخر سفرة لي تملكني شوق عارم إلى شاي عمي أحمد وفي طريق عودتي جلبت معي بضعة أكياس من أنواع الشاي الجيّدة هدية له.. وعندما وصلت استرحت صبيحة ذلك اليوم وفي المساء ؛ ورغم أنّ التعب والإرهاق لم يزايلني تماما إلا أنني تحاملت على نفسي وقصدت دكان عمّي أحمد الرابض وسط أكبر شوارع قريتنا الصغيرة المتفرّعة عن إقليم مدينة سيدي عقبة مدفن الفاتح العظيم عقبة بن نافع ، وهالني المنظر من بعيد ... الدكان موصد الباب والساحة أمامه خالية من الناس وهي التي طالما عجّت بهم إلى ساعة متأخرة من الليل... ترى ماذا حدث في الدنيا هل وصلت الحضارة المشؤومة هنا لتقضي على كل ما هو طبيعي وأصيل ؟!

طرقت الباب الجانبيّ المحاذي للدكان ففتح لي ابن عمّي أحمد الأوسط ، هش لمرآي وخمّن للتوّ سبب زيارتي فأطرق هنيهة ثم قال:

- أطال الله عمرك الدوام لله ، تفضل لنشرب كوبا من الشاي سويّا.

لم أقو على الرفض فدخلت وراءه ، ونحن نمرّ عبر الرواق إلى غرفة الاستقبال سألته والحزن يثقل الحروف على شفتي:

- منذ متى حدث ذلك ؟

- منذ خمسة أشهر تقريبا...كيف لم تعلم ونحن في عصر السّرعة والاتصالات ؟ !

- أنا كثير الترحال ولا أكاد استقر في مكان وأظن أن ذلك سبب جهلي بما جرى ! وهنا تذكرت أن أعزيه فقلت:

- عظم الله أجركم !

رسم على شفتيه ابتسامة هادئة وقال: لا أراك الله شرا تفضل.

وبعد لحظات استأذنني فيها دخل عليّ وبين يديه صينية عليها كوبان من الكبسولة مترعين بشاي أخضر، مدّ يده نحوي بأحدهما وهو يقول:

الوالد رحمه الله أورثنا الصنعة ، تذوّق سوف لن تلاحظ أيّ فرق بين هذا الشاي وشاي الوالد رحمه الله !

ابتسمت بدوري بعد أن أدركت أنّ أيام الحزن على الفقيد قد ولت وأنّ الذكريات الحلوة هي وحدها الباقية ، أخذت رشفات بطيئة من الكوب وأنا " أمزمزه " في فمي ، رفعت عينيّ نحوه فألفيته ينظر إليّ مستطلعا كأنه يسألني رأيي !
قلت مجاملا : حقا...هذا الشبل من ذاك الأسد.
ثرثرت معه بضع دقائق سلمته بعدها الهديّة البسيطة متأسفا على أنني لم أجد عمي أحمد من الأحياء وانصرفت ، وما إن تخطيت عتبة الباب حتى التفت يمينا وألقيت نظرة فاحصة على الدكان الموصدة وتمتمت وأنا أتحسّس مذاق الشاي بلساني: محال...الفرق بين للغاية... ليس فيه السر... ليس فيه نَفَسُ عمي أحمد !

الأغلال.

كلّ الأفكار المتكلسة بداخلي تذوب بصهد أول نسمة هواء تداعب أنفاسي المختلفة.. مدينة جديدة عالم آخر من البشر والأشياء والأحداث.. سحر ملعلع يمخر ذاتي ، أشعر بالتعري المطلق ، لم أنسلخ من ثيابي بعد.. ولكن الأغلال التي صفحت روحي أخذت تتلاشى مع كل خطوة أغرسها في حقول هذه المدينة الجديدة.. هذه المدينة الساحرة ، وشعرت بصحو عظيم يكتسح كل خلاياي نفضت الماضي قبل أن أستقل الطائرة التي طارت بي إلى هنا ، قررت أن أفتش عن خبايا الإنسان الذي لا أعرفه ولا يعرفني وعن أسرار مدينة لا أتوقع أن يظهر لي في إحدى شوارعها بين الفينة والأخرى مخلوق مقرف يقول:
أهلا. كيف أنت ؟ ويتفحصني بعينين متقدتين من رأسي حتى أخمص قدمي ، كأنما يريد الولوج إلى صدري فيعرف نبضات القلب وذبذبات الشعور.
ما أفضع أن تطوّقنا الأغلال في كل منعطف أو مفترق طرق.. الوجوه متشابهة ، ملامح مغلقة غير مبالية لا تعني لي شيئا ذا بال ، أضحك.. أبكي، أعدو ،أمشي بتثاقل ،أدور حول نفسي أغنّي بصوت يملأ الفضاء، أقطع الشوارع جيئة وذهابا لا أحد يرمقني بنظرة عتاب أو تساؤل.
أحسست بالجوع قصدت أقرب مطعم لاح لي بلافتته المغرية " وجبة دسمة " دخلت بمرح تأمّلت الوجوه بنظرة ماسحة ، كان الجميع منهمكا في عمل عظيم وجبار إنه إحدى الطقوس الأبدية التي لا يتخلف عنها الإنسان ، أغمضت عينيّ ورحت أستعرض حيوانات الغابة في الذاكرة قدر ما أسعفتني معرفتي لم أجد فرقا كبيرا بين ما رأيت وما تذكرت ، أنياب حادة تمزق اللحم النيئ أو نصف الناضج " لا فرق " أضراس تطحن بقوة رهيبة لا تكلّ ، وبلاعم تزدرد بلذة متوحشة ، أقرب ما يكون الإنسان إلى الغابة عندما يدخل مطعما.
سألت النادل: - ماذا عندكم ؟
اندفع يسرد عليّ قائمة من المأكولات - التي لا أعرف أكثرها – بنبرة سريعة خاطفة ، طلبت أول اسم التقطته أذني لأكلة أعرفها ، شعرت أنّ هناك قيدا مازال يكبل أعماقي، ماذا يحدث لو أنني طلبت شيئا جديدا لم تألفه معدتي المنهكة ؟
في لحظات جاءني بما طلبت على عجل... وضع قربي شوكة وسكينا ، أزحتها جانبا وقلت في نفسي " لما لا نجرؤ على خلع الأقنعة ؟ " وأخذت

ألعق الصحن بإصبعي مستعملا الخبز ، رمقتني العيون بنظرات بلهاء لم تثر فيّ أدنى اهتمام أو قلق... لكنني علقت وعلى شفتيّ ابتسامة واسعة:
- هذه أفضل طريقة للتلذذ الكبير بالأكل.
طأطأ الجميع رؤوسهم غير مبالين ، كذلك فعلت.
خرجت من المطعم مرتخي الأعصاب مثقل المعدة أجر رجلاي بتراخ ، أشرت إلى سيارة أجرة فأقلتني إلى فندق ما ، لا أذكر اسمه... ولجت الغرفة وفورا غططت بكامل ثيابي في نوم عميق..
عندما استيقظت ألفيت – من خلال النافذة الصغيرة- أشعة الشمس تنسحب على عجل مختفية في الأفق البعيد خلف الجبال الداكنة ، إنه المساء بثقله ووحشته يغزو المدينة الغريبة جدا..
يد"غليظة تطبق على روحي ، فراغ رهيب يملأ صدري.. هذه المدينة الغريبة الساحرة ليس فيها رائحة الليل المنعشة التي ألفت الركون إليها بعد مشقة النهار المضنية.
الغرفة الصغيرة صفراء اللون تضيق شيئا فشيئا.. السقف يهوي ببطء شديد ، قطرات من العرق تطفر من جبيني ، القشعريرة تنفض جسدي.
مضت بضعة أسابيع ليلها يسلخ نهارها.. ونهارها ينسي عذابات ليلها، زرت الحدائق البديعة والساحات العامة ، دخلت دور السينما والمسرح رأيت البحر بعيون ولهة وذقت طعما للذة جديدة لم أشعر بها من قبل ولا طافت بخيالي ، إلا أن المارد بقي يتململ في قمقمه يصرخ في أعماقي.
- أنا الآن وحيد.. وحيد وحيد بلا قيد أو أغلال تكبلني ، الأسرة الأطفال.. الزوجة.. الأهل ، رئيس العمل ، وأصدقاء المقهى... يا لله كم تشوقت للفكاك... الانطلاق في فضاء لا يخنق الأنفاس ولا يحد الرؤى والسلوك ، لكن....
الآن خبت النشوة.. خفت وهج التوق الأول.. بل أكثر من ذلك انقلبت الآية ، الوحشة تطوقني.. شعور عارم بالرغبة في العودة إلى أفقي المحدود ؛ تلك الحدود التي كنت أظنها تطوق رغباتي إنها وحدها التي تعطي لرغباتي معناها الإنساني السامي.
مع مطلع فجر يوم جديد كنت في طريق عودتي إلى مملكتي المحدودة ، وصوت عذب بداخلي يتردد: " اشتقت إليك أيتها الأغلال ".

الحــفل.

رجعت من الثانوية مثل فراشة طائرة ، دفعت باب البيت الموارب- دائما- برشاقة قطة وقبلت أمي على الخدين وأنا أداعب خصلات شعرها المظفور ، وهي تذودني في حنان عن العجين الذي لم يلتّ تماما ، لم أدع لها فرصة للملمة أفكارها وبادرتها بدلال:
أمي سنقيم في الثانوية حفلا وقد طلب من كل واحد منا أن يساهم بثلاثين دينارا.. أقنعي أبي يا أمي أن يعطيني ثلاثين دينارا.. أرجوك تبسمت أمي مثل عادتها ثم قالت:
- حسن.. ابتعدي عن العجين أولا ، إذا رجع أبوك ولم يجد الغداء جاهزا فأنت تعرفين غضباته وساعتها لن تنالي دنانيرك الثلاثين.. وربما نالك شيء من سخطه..
فقفزت'في فرح ... ذهبت إلى غرفتي غيّرت ملابسي المدرسية ، وارتديت ثياب البيت وفي رأسي صور مزركشة للحفل المرتقب ، يا إلهي كيف سيكون هذا الحفل ؟ إنه أول حفل سأشارك فيه ، سأمرح مثل طفلة في السابعة من عمرها...
هرولت نحو مطبخنا الصغير حيث تقبع أمي في صراعها الأبدي مع كتلة العجين التي كادت تصير جزءا من كفيها المرهقتين بالعمل طوال النهار برغم ذلك تستنكف أن تطوي يديها على صدرها وتسلق الآخرين بألسنة حداد ، وهي تقول دائما:
- أنا أريد أن أوسّع في قبري لا أن أضيّق فيه..
رائعة هي أمي لم تدخل المدرسة يوما ؛ لكنها استخلصت من تجربة الحياة حكمة عميقة ، خطفت قصعة العجين من بين يديها وأخذت ألته بمهارة فائقة.. رمقتني بنظرات حلوة ثم سألتني:
- بأي مناسبة ستقيمون هذا الحفل..؟
- بمناسبة ختام السنة الدراسية ، كل الفصول ستقيم احتفالات خاصة بها وكذلك فصلنا ، أتمنى أن يوافق أبي ، هو دائما لا يعير هذه الأمور أهمية ، أرجوك... أقنعيه يا أمي.
- سأفعل وليسهل الله..
دخل أخي الذي يكبرني بعامين فسألته أمي إن كان رأى أباه قادما ، فأجابها أنه لم يره ، ولكن لم ينه كلامه حتى دُفع الباب وظهر في المدخل أبي بقامته الطويلة وجسده الضخم وشاربيه المفتولين وقد سقط طرف عمامته على كتفه الأيمن ، مسح الدار بعينيه الصقريتين ، ألقى نظرة على مدخل المطبخ رآنا مجتمعين ثلاثتنا قال بفتور يشوبه سخط يتململ:

- أنتم هناك.. هل أعددتم الغداء ؟ أكاد أهلك من التعب .. لا أدري بمن اصطبحت اليوم ، إنه يوم مكفهر من بدايته ، صمتت أمي ولم تعلق على تضجّره فهي تعرف طبعه عندما يكون متعكر المزاج ، فلو نبس أحد ما بأي حرف لثار وهاج وأرغى وأزبد ولا يمرّ يومنا على خير.. ومن ثم التزمنا جميعا الصمت ، ورحت أقلب النظر في وجه أمي محتارة ، فارتسمت على وجهها علامات الاستسلام واليأس ، وطرق الباب على حين غرة ودخلت أختي الكبرى وزوجها ومعهما ابنهما المشاغب المرح ، وما إن رآه أبي حتى انشرح صدره وانبسطت أساريره ، فعاد الأمل إلى قلبي وزالت غشاوة القنوط عن وجه أمي.. بعد الغداء إذ جلسنا نتجاذب أطراف الحديث ؛ طرحت عليه الفكرة وبرغم اعتدال مزاجه فقد أجابني:

- وما شأني أنا بالحفلات..؟ إن أردت إقامة حفلة أقمتها في بيتي.

بالمناسبة هو لا يعير للحفلات المستحدثة أي اهتمام ، ويعتبرها تافهة.. رددت عليه مستغلة دلي فقد كنت أصغر إخوتي وهو يميّزني بشيء من الأثرة:

- كلّ زميلاتي سيشاركن فكيف أبقى أنا وماذا سيقولون عني ؟

تململ في مجلسه وهو يداعب حفيده إذ يحاول ملاعبة شاربه ثم قال:

- أرسلتك لتدرسي وليس لتشاركي في الحفلات ، ما شأن العلم بالحفلات ؟

أطبق الصمت علينا ورحنا نتبادل النظرات القلقة ، في المساء عندما كان جالسا مع أحد الضيوف دسسنا عليه ابن أختي ليحرجه أمام الضيف فيدفع لي الثلاثين دينارا ، ونجحت الخطة بعد جولات طويلة ، وأخيرا حصلت على بغيتي ليلتها رقدت وعوالم من السعادة تغزوا أحلامي ، وفي مساء الغد حضر الطلاب ترقص المسرة في وجوههم ، وفي حصة اللغة العربية صففنا الطاولات بشكل دائري ، وأخذت بعض الزميلات يهيئن الكعك والحلوى والمشروبات ، ملت على زميلتي سعاد أسألها عن سهلة:

- لم تحضر سهلة..؟ لا يحلو الحفل بدونها..

- هي خجلة ولم تشأ أن تشارك في الحفل لأنها لم تساهم فيه.

- أوَ لم يستجب أبوها لطلبها التافه هذا وهو الثريّ ثراء فاحشا ؟

- إنها مسكينة إنّ أباها جُبل من طينة عجيبة كأنها ليست ابنته.

تأوّهتُ ثم قلت في نفسي: " الحمد لله لولا قدوم ابن أختي لربما كنت منزوية على نفسي في ركن من البيت أنشج بحرقة ، ثم تلفت إلى ما حولي مترقبة بدأ الحفل في لهفة وشوق. قال أستاذ اللغة العربية:

- هذا الترف يا شباب.. كلوا واشربوا أسرفوا هذا يوم لا يتكرر كثيرا في الحياة ولكن قبل البدء عليكم بدعوة المدير وبعض الأساتذة ، ولا تنسوا الحارس أيضا.

وما إن سمعنا اسم الحارس حتى انتشرت الهمهمات المتذمّرة:

- "هبّون ".. أف..

- لا.. إياكم أن يدعوه أحد..

انطلق رئيس الصف ودعا المدير وبعض الأساتذة الآخرين وغض الطرف عن "هبّون ".

انشغل الأساتذة في أخذ بعض قطع الكعك والحلوى ووضعها على مناديل ورقية.. ووقفنا جميعا احتراما لهم حتى يفرغوا وأعيننا تتطلع في خوف وتوجس إلى الباب ؛ حذار أن يهجم " هبّون ".

وإذ بدأ الأساتذة في الانسحاب وظننا أننا غدونا بمنجاة.. أقبل " هبّون " بكرشه الضخم وصلعته المستديرة وشفتيه المرتخيتين ، يجرجر رجليه وهو يحمل بين يديه صحن أشعب الذي أمر الصانع أن يوسّع له فيه.. ثم هجم على أطباق الكعك والحلوى مثل الإعصار ينتقي ويختار دون حياء أو ارعواء ووقفنا جميعا نتميز من الغيظ ، وما إن خرج آخر الأساتذة حتى التف الطلبة "بعبانة " وأخذوا يقرعونه ويلومونه على فعلته لكنه ما حفل بهم وتنهنه بل صنع مثل الهرم العلي فوق صحنه الأشعبيّ من قطع الكعك والحلوى ؛ التي نمنا ليالي طوال نحلم بها ويتحلب ريقنا عليها ، وإذ لم ينفع معه شيء وأخذ حصة الأسد ؛ ثم ولى والسخط يقفو أثره ، اندفع الطلبة يختطفون ما بقي في شبه هستيريا.. اختلط الحابل بالنابل وفسد الحفل وضاعت الآمال ، وكان نصيبي من الغنيمة الفتاة.. سحقا لهبّون والأساتذة والمدير، وسحقا لي أنا أيضا.. وتبت الحفلات..

دموع تتكلم.

في تلك الساعة من المساء قبيل المغرب ، تتجمع كل أحزان الدنيا وأشجانها في غرفتي البسيطة ، بل الرثة المبعثرة الترتيب المملوءة بالرطوبة وأشياء أخرى تصدر أصواتا وحركات مزعجة تزيد من كآبتي، فألوذ بكتبي عساها تسليني أو تطرد عني كابوس القلق والاختناق، وما إن أفتح تلك الكتب ـ وقد كانت من قبل ذلك خير جليس ـ حتى يتبدّى لي من بين طياتها شبح مفزع مروع ملامحه قاتمة وضحكته صفراء مقرفة ،

يحاورني أو لنقل يعزّرني بتلك الجملة التعسة التي لم ينفك دوما عن تكرارها:
ـ وماذا عساك تصنع بالكتب وهل يجديك العلم نفعا أيها التعس المسكين
وأطوي الصفحات في ضجر ثم أتمدّد على فراشي المنبسط على الأرض والذي بدأت تتآكل جوانبه من كثرة ما دسته بأطراف حذائي وأنا أستلقي عليه بإعياء ثم أحسّ بذرّات التراب والغبار تتخلل ثيابي لتتسرب إلى مسامات جلدي المرتخية منشدة الحر ، فتؤذي جسدي المكدود وأقف متذمرا لأزيحها بخفقات من كفي الواهنة !
وتسير الحياة بطيئة مكفهرة السمات غير أنها لا تخلو من بعض متعة أو بعض فرح.. إلا تلك الساعة المشؤومة...هي وحدها مصدر بؤسي وشقائي الأكبر ، لست أدري ما الذي جعلها كذلك , ربّما لأنها ساعة غروب الشمس أو لأنها بداية الظلمة التي تسدل على الكون ستارا بلون واحد يضفي عليها مسحة الكآبة والوجوم ، أو أنها توحي لي بذكريات قديمة دفنتها في أعماق قلبي ، وظننت أنني نفضت منها يدي إلى الأبد ، وما هي إلا بضعة أعوام حتى انتفضت صارخة من جديد ، تحاول سحق عودي الصلب أو زعزعة كياني الشامخ ! ربما.
ولعلّ كل ذلك وهم سخيف يستعبدني مرّة كلّ أسبوع في ساعة خارج الزمن ، وهي مع ذلك تختزل الزمن كله فتكومه ثم تجعله كتلة رماد تذروه في عيون أيامي.. تلك الدموع المترقرقة لن أنساها ما حييت ، إنها ما تزال واقفة عند أسوار أجفاني يصدها الكبرياء ، وتمنعها رجولة زائفة , تلك الدموع سرّ من أسرار قلبي التي ينوء بها العمر وإنها دموع حبيب لم يقل يوما لحبيبه إني أحبّك... ولعله قالها ولكن بغير لغة اللسان والصوت !
ولمّا أزفت ساعة الوداع استجمع كلّ عواطف قلبه ومشاعر نفسه ، فناءت بها الكلمات وثقل أن يبدي اللسان بها ، فانهمرت الدموع بها سلسة لأول مرّة مقتحمة كل الحواجز الواهية ، منحدرة كإلياذة خطت بنور الشمس على صفحات من ضياء القمر الفضي المتلألئ في دلال!
يا ويح نفسي كيف غفلت تلك الدموع كلّ هذه السنين العجاف ، ولم أقرأ رسالتها الفصيحة ، تلك الدموع المتكلمة أرسلتها روحك لتعانق روحي الجافية , فلم تجد من فؤادي غير تحنان مزيف ومساعفة بليدة ، وابتسامة مخادعة ، اصطنعت اصطناعا.

ووجدتني بعد هذه السنين الطوال أكتشف أنني أميّ لا أفقه لغة الحب والحنان ، وعشت في بلادة كخشبة نخرها السوس... وها أنا ذا الآن أريد لأحيا وأبرعم من جديد , وبماذا ؟ بتلك الدموع السواجف التي كادت تمسحها الأيام من خدّيك في صورة مخيّلتي ، لولا تلك الساعة المشؤومة التي زلزلتني زلزالا شديدا ، وعصفت بي ذات اليمين وذات الشمال ، إلى أن استفقت من غيبوبتي وأنا أتمتم : كيف لم أقبلك كيف ، وأنت تودّع الحياة في ساعة الغروب يا أبي .. كيف ؟

ويولد الربيع في صدري.

يُطرق الباب طرقا قويا..أهرع على عجل فأفتحه لأجده قبالتي بقامته الفارعة وشاربيه الكثين وعينيه الثاقبتين مثل عيون الصقر...أدفن نفسي بين ذراعيه ، أغوص في دوّامة الحلم الجامح أنتشي حدّ الثمالة ، تتراءى لي الصور الصاخبة بألوان صارخة ، إخالني فارسا عملاقا يحمل سيفا لجينيا يطوّح به الأعداء المتآمرين وأشباح الليل المرعبة ورأس جارنا المقرف الذي لم ينفك عن مطاردتي بعينيه الملتهبتين كالجمر ، يودّ لو يلتهمني... يسحقني ، يمحو أثري... وأستيقظ من غيبوبتي لأجدني وحيدا

بلا أنيس وأفتش عن أخي العملاق..عن شاربيه الكثين عن سيفي اللجينيّ فيصدمني الخواء المرير وتقابلني صورتي الهزيلة في المرآة المشدوخة الزوايا ، لتذكرني بضعفي ووهني ! وفي عمق المرآة تلوح صورة أبي على الجدار خلفي : كان يضع على إحدى أذنيه نصف سيجارة من " العرعار " ونظرة باهتة تترنّح فوق عينيه الذابلتين ، لا شك أنّ الصورة تعبير حقيقيّ عن أيّام حياته الأخيرة عندما شبع من الدنيا وشبعت منه ! حملقت في الصورة مليّا:

كان طيبا للغاية ومهملا للغاية إلى درجة لا تصدق ، وعندما احتججت ذات يوم وطالبته ببعض حقوق بنوّتي عليه أجابني وهو يقهقه وبقايا أسنان نخرة تناثرت بين شدقيه في غير انتظام:

ـ أنا مثل " الفكرون " يلد ويهمل !

وسحب نفسا طويلا من سيجارة " العرعار " ثمّ أرسله ليملأ أجواء المكان بسحابة داكنة تخنق الأنفاس.

ولكنه رغم كل ذلك التقصير وهبني الحرية المطلقة التي جعلتني أخوض في لجج الحياة طولا وعرضا وأعيش الحياة بكل أبعادها ، ومع ذلك أيضا فإنّ في القلب ألما مستكنّا لم يبرحه... عشرة من الأخوة قضوا من دوني وخلفوني مثل الفرع الكسير!

طرقات أخرى على الباب خفيفة هذه المرّة إنها صادرة عن يد ناعمة غضّة كما يبدو...أقف متخاذلا أجرجر جسمي المنهك ، أمدّ يدي إلى المزلاج ، أفتح الباب بيأس فألفي ابني الصغير وقد زحف حبوا نحو غرفتي كأنما أدرك ما أعانيه من عزلة وجوع عارم إلى الأنس بالآخرين ، فأراد أن ينتشلني من الدوامة المريعة!

حملقت فيه مليا...ارتسمت على شفتيه الصغيرتين ابتسامة آسرة وناغاني بصوت منغم مفعم بالبراءة ، انقلب كياني بكامله غير أني تماسكت وتشبثت بشبح الحزن المطبق على تقاسيم وجهي.. أتذكر كلمات أمي الأخيرة وهي تودع الحياة:

ـ أنت " نوارة " وحيدة في خضم من الزرع المضطرب وقد لعبت به الريح الهوجاء ... كنتَ حشاشتي التي حفظت لي رمق الحياة ردحا من الزمن ، ثم ها أنذا أوشك أن أسلم الروح وأتركك وحيدا من غير إخوة يحفونك ويؤنسونك ... لكن لاضير ، فعسى أن ينبت الله من " النّوّارة " نورا كثيرا تزهو به وتقوى !

ورددت النظر في صبيّي الصّغير ... كانت عيناه تشعّان ألما ثمّ قربته مني لأقبّل مابين عينيه وأضمّه إلى صدري بشوق ...
وأمشي نحو النافذة وأمسح الضباب المتكاثف على زجاجها وأرمق الأفق البعيد بعيون متطلعة ، فتلوح أحزمة متراقصة من أشعة الشمس تطوّح ببقايا السحب المتناثرة من مخلفات الشتاء المنفيّ إلى زوايا الماضي المنسي ، وأتحسس نَفَسَ الربيع وقد بدت روحه تداعب أمداء الكون... ثم أرجع البصر نحو وليدي وهو بين ذراعي وأتمتم:

" هذا مستهل نوّاراتي يا أمي ".

أنا والدرويش!

" أنت جافٍ يا عبد المليك... لم لا تزور قبر أبيك "

والتفتُّ إلى مصدر الصوت الذي كان مألوفا عندي فرأيته مستلقيا على ظهره ، مسندا رأسه إلى جدار كشك المحطة واضعا إحدى ساقيه فوق الأخرى بأسماله القذرة وشعره الأشعث المنطلق في كل الاتجاهات وقد لفحت وجهه شمس الصيف اللاهبة ، وكانت الكلمات الغريبة تخرج من فمه مصحوبة بصفير مزعج ، سببه تساقط بعض أسنانه الأمامية ، بينما أوشكت البقية المصفرة والنخرة من كثرة تعاطي الدخان أن تردفها!

سألته في اندهاش:

- ماذا تقول يا مرابط ؟

أعطني نقودا أشتري دخينة !

- سحبت من جيبي بضعة دنانير ؛ بقية ممّا التهمه فم المدينة المفتوح دوما ليلتقم ما في جيوبنا الضيقة ؛ ودفعتها إليه.

ماذا قلت قبل هنيهة ؟ أظنك تحدثت عن أبي ! لقد سمعت ما قاله جيّدا ووعيته غير أن هول الصدمة جعلني أطرح عليه السؤال ثانية كي أتيقن ممّا قال...

- أنت لا تزور قبر أبيك !

- كلا أنا أزوره... (وأردفت محاولا إخفاء اضطرابي) وما أدراك أنّي لا أزوره ؟!

جذب من دخينته نفسا طويلا ثم نفثه في الهواء دفعة واحدة ، وأردفه خيوطا رفيعة من لعابه سالت على ذقنه حتى بلغت صدره متجاوزة القميص المهلهل...مدّ أصابعه تحت القميص ودعك بها صدره مرارا ثم أخرجها ، لينثر كوّيرات من الوسخ المزيّت ! ورمقني شزرا وقال:

- أنت جاف يا عبد المليك... جاف وقلبك حجر.

- ودمدم بمقاطع من القرآن:

-" وإنّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ..."

- ترى أيصدّق منطق العجائز ؟ هنّ يعتقدن في يقين لا يشوبه شك أنّ هؤلاء الدراويش مكشوف لهم الحجاب ، وأنا أجد صعوبة بالغة في تصديق ذلك ، بل أرفضه في سخرية واستهزاء ، ولكن في قرارة نفسي أشعر برهبة عظيمة عندما أسمعهنّ يسردن أعاجيب كثيرة عن المعتوهين والمجانين ، مما يدفعني إلى طرح أكثر من سؤال حول هذه الأحداث المثيرة !

هممت أن أستفسره أكثر عمّ يرمي إليه بهذا التأنيب العجيب وكيف عرف سرّي الدفين ، لكنه قام منتفضا كأنما لدغته حيّة ، فراح يحث الخطى نحو الوادي العميق أين يقضي جلّ ساعات يومه وتركني خلفه وقد أقضّت

كلماته مضجعي تلك الليلة ولم أكد أغفو حتى عاودني شبحه بصوته المُصفِر كأنما ينعى إليّ أبي لأول مرة:

ـ أنت جاف يا عبد المليك... جافٍ ! لم لا تزور قبر أبيك ؟!
تربّعت جالسا في فراشي ودهمتني خواطر شنيعة لم تختلج في صدري من قبل:

" ما قيمة أن يزور المرء رميما بال موارا في التراب ؟ أللذكرى والأيام الماضية وهي ليست بذلك المحلّ ؟ أم للمناجاة والتخاطر بين عالمين منفصلين ، عالم البرزخ وعالمنا المليء بالمتناقضات ، وذلك ممكن في أي مكان ومن أي مسافة أو بعد ؟

لم أجد في نفسي أي شوق لزيارة قبر أبي ، لا لجفاء في نفسي كما زعم الدّرويش ، ولكن لأمر أكثر بساطة وأيسر فهما.. إنّ صورة أبي لا تكاد تفارقني ، وذكراه تعجّ في ذهني بأحداثها الحلوة وأيامها المفعمة بالحياة، فما جدوى أن أقف على قبر هو كومة من التراب وعظام نخرة ؟

وقد أكون بذلك مخالفا لعادة ترسّخت في سلوك النّاس والمجتمعات ومخالفا لرأي أو أمر تواطأت عليه جل الأمم ، ولكن هذه الحقيقة الناصعة التي أجدني أقف أمامها وجها لوجه دون حاجز من وهم أو خرافة أو عادة جرى عليها الناس.

وجلجل آذان الفجر في الآفاق فانتشلني من دوامة أفكاري المائجة وقمت أتوضأ لأصلي مع نسمات السحر الهفيفة ، وقبل أن تبزغ الشمس من مشرقها وجدت خطواتي تتجه بتردد منساقة نحو المقبرة ، وعند بابها وقفت متأمّلا المنظر الرهيب...

مشيت خطوات مخترقا صفوف القبور المنتشرة في غير انتظام ، وطفت هنا وهناك: هذا قبر صغير قدر ذراع يبدو أنه لصبيّ رضيع وهذا قبر ضخم مجصّص وعليه شواهد ثلاث ، ربّما كان قبرا لامرأة.. وذاك قبر يكاد يعفو رسمه وذلك إلى جنبه مشيّد بالرخام الأبيض الناصع ، ومكوّن من طبقتين فكأنما هما كوخ حقير إلى جنب قصر منيف , فقلت في نفسي:

الدنيا تتبع أصحابها حتى في شكل القبور ! ولكن هل الدّود تحت بضعة أشبار من الأرض يميّز بين أجداث سوقيّ وأجداث ملك ؟ وتعبت قدماي

من الطواف وعيناي تفتشان في جنون بغير جدوى... وقرّرت أن أولي الأدبار !

وانخطفت لمّا رأيته يرمقني بعينيه المتقدتين وقد اضطجع على ظهره وأسند رأسه إلى باب المقبرة الحديدي مشرع الدفتين مثل ذراعي غول أسطوري يهمّ بالتهام العالم ، ووضع ساقا على ساق تماما كجلسته لدى الكشك ، كأنما لم يتزحزح من موضعه قيد أنملة... وتراجعتُ خطوات إلى الوراء ثم استجمعت قوّتي واقتربت منه ، وكان غلس الظلام بدأ يتبدّد:

ـ هل هذا أنت مرابط ؟ ماذا تفعل هنا ؟!

وساد صمت رهيب للحظات أحسست به مثل الأسواط الملتهبة تلهب ظهري... ثم فجأة قال :

- أنت جاف يا عبد المليك.. جاف ولا تعرف قبر أبيك !

طأطأت رأسي والحسرة تمزق كياني ثم قلت باستسلام:

أجل ! هذه هي الحقيقة المرّة... لقد سوّيت قبره بنفسي ورصصت سطحه بالحجارة حتى يحفظ من عتوّ الزمن ، ووضعت أسفل شاهده إناء ليملأ بماء المطر فتشرب منه الطيور ، عسى أن يكون ذلك شفيعا له عند الله...

لكن لما طال عليّ العهد وطفَتْ من حوله القبور مثل الفطر ، غاب عني ومنعني الكبرياء والحياء أن أسأل: من يعرف قبر أبي ؟!

أتعرفه يا مرابط... هه بالله عليك قل أتعرفه ؟

ولم يأتني أي جواب فرفعت رأسي مستطلعا فلم أعثر له على أثر!

في الغد سمعت طرقا متتاليا على باب منزلي فهرولت مسرعا وفتحته... وجدت أحد جيراني جاحظ العينين لاهث الأنفاس يقول والدهشة تسربل كيانه.

أتدري ماذا حدث (ودون أن يتركني أتفوّه بأية كلمة) قال:

المرابط الدّرويش وجدوه ميتا في شق مفتوح داخل قبر أبيك رحمه الله!

لم أدر ساعتها أأحزن أم أفرح ! إلا أنني رفعت رأسي إلى السماء فرأيت الشمس تكلل الأفق وتضفي على الكون سناء بهيجا وحينئذن قررت في دخيلتي أن أحضر جنازة الدرويش !

دشرتنا القديمة....

دشرتنا جميلة جدا...
مجموعة من البيوت الطينية المتراصة على شكل دائري يمثل حصنا منيعا ضد الأعداء تحفّها بساتين النخل من جميع جوانبها كأنها توّيجات زهرة حضنتها الأكمام ، تخترقها جداول من الماء الرقراق دائمة التدفق، لطالما استحممنا فيها ونحن صغار، وكنا نصطاد سرطان الماء فيطبخه بعضنا و يأكله و يستلذ طعمه ، أنا شخصيّا لم أجرب ذلك ولا أعلم السبب إلى الآن وقد شارفت على الخمسين من العمر.
ربّما صاح بعضكم وقال إنّ السّرطان حيوان بحري لا يعيش إلا في المياه المالحة فأقول له: لا تتعجل ، زر دشرتنا أو واحتنا الصغيرة وسوف ترى بأمّ عينيك ما زعمته لك ، لعلّ جداول واحتنا تستمد ماءها من بحار عظيمة في أعماق تجاويف الأرض ، من يدري ؟
لن تندموا أبدا إذا زرتم واحتنا وبالرغم من التغيير الشديد الذي بدل بعض ملامحها على مرّ السنين إلا أنها ما تزال تحتفظ بنظارتها وسحرها.
لم تعد واحتنا مكتظة بالسكان كما كانت من قبل ، الطوفان هو السبب، ليس طوفان الأمطار فلقد مر عليها أكثر من طوفان فما زادها إلا رسوخا في

الجمال وفي التاريخ وفي تربتها " السمراء " إنّ الطوفان الذي أقصده هو طوفان الإسمنت والحديد.
يروي الشيوخ الكبار عن واحتنا حكايات عجيبة وأحاديث تذهل لها الألباب.
في صغري كنت أستطيبها كثيرا وكانت تعوّضني وأترابي عن هذا الجهاز المرعب الذي سموه " التلفاز "
وممّا علق بذهني من تلك الحكايات قصة لا أنساها أبدا ما حييت... وسأبقى أرويها وأحدث بها إلى أن تعجز شفتاي عن الكلام ولا تقوى الأصابع على مداعبة القلم.
قال الراوي يا سادة يا كرام... ولا يحلو الكلام إلا بعد الصلاة والسلام على خير الأنام.
فقال جميع الحضور وكنت أصغرهم سنا في ما أذكر:
- عليه الصلاة والسلام.
فصمت الراوي هنيهة متخشعا ثم قال:
زار واحتنا وفد مهيب من معمري " الفرنسيس " برفقة الآباء البيض تحفهم ثلة من عساكر فرنسا الآنذال ، ولأول مرة نحظى من أبناء الرومية الكفرة بالتحيات والبسمات.. وبعض الهدايا التي طرنا لها فرحا شيوخا وفتية وصبايا.
وكان " القائد " دليلهم الهمام إلى أرض الجنان ، وبعد جولات في الواحة و"عرضات " شبعوا فيها من لحس العسل وأكل التمور والبط والإوزات ، جمعونا في الساحة الكبرى التي نسميها " الجماعة " ؛ وتلك تسميتها إلى الآن لا تزال وتكلم " القائد " الذي لا نراه إلا كما نرى هلال رمضان ، والحقيقة أنه في ذلك اليوم أحسن القول وتوزيع البسمات ولولا شدة احمرار وجناته المكتنزة ، وبروز بطنه المكور رغم إحكامه شدّ سرواله العربي بالشاش الأصفر المطرز ؛ لقلنا الرجل مظلوم وهو دائم الصلاة والصوم.. ولكن كما قال الشاعر الحكيم:
مخطىء من ظنّ يوما أنّ للثعلب دينا..
ملخص الكلام حتى لا أطيل عليكم ويصيبكم الملال وترمونني بالاستثقال، فقد قدم لنا " القائد " أحد الآباء البيض ، ولا أكتمكم كان الرجل أشد بياضا من زبدة الماعز الطازجة ولحيته أكثر بياضا منه ، علاه سمت من التواضع والخشوع كأنه أحد الأولياء الصالحين أو أصحاب " الخطوة " المكشوف لهم الحجاب..

وتكلم الرجل ، فأرهفت الأسماع وتطاولت الأعناق واستند الصبية على الركب - إذ كنا جميعا جلوسا – ليروا هذا الشيخ العجيب ، ومال أحدهم عليّ وسألني:
- عمّي ، من يكون هذا الشيخ الكبير ؟
فزجرته في غلظة وغضب وقلت:
- أسكت ولا تكثر الشغب ، هذا إمام النصارى فلا يأمر إلا بالإشارة.
واستمعنا إلى الخطيب العجيب ذي النطق الغريب ، إذ كان يلوي لسانه بالعربية فيجعل من الراء غينا ومن القاف كافا... حتى كاد الصبية يستلقون على البطون من الضحك ، لولا غمز الأمهات ونظرات الآباء الرادعات.
ومما أذكر من كلام الخطيب الموشح صدره بالصليب:
يا أبنائي أحبّوا فرنسا وطنكم الجديد.. يا أبنائي أحبّوا أباكم الذي في السماوات.. أحبّوا المخلّص الذي مات فداء لأبنائه المخطئين.
هو واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد " الآب والابن وروح القدس ".
إن طلبتم الغذاء أعطاه لكم السيّد المسيح (وأشار إلى" القائد " بعينيه)، فأمّن الأخير بغباوة على كلامه كثور يهز قرنيه ويزفر بمنخريه إذا رأى العلف الذهبي والعشب السندسي.
ثم أضاف كبير النصارى قائلا:
- وإن أردتم لباسا أو أغطية أو حلوى لأبنائكم.. فاطلبوا كل ذلك من أبيكم الذي في السماوات السيّد المسيح.. يا يسوع المخلص (وضم كفيه إلى بعضهما وأدناهما من وجهه مشيرا إلى السماء) فالتفتّ حولي فألفيت الصبية يحاولون تمثيل هذه الحركة بأيديهم كأنها لعبة طريفة ، وبعضهم ينظر إلى بعض كاتمين الضحكات التي تكاد تفجر الصدور.
ثم زاد وقال:
يا سادة يا كرام:
أنتم أبناء السيّد المسيح.. أنتم أحباؤه ، فأحبّوه يخلصكم ، وأطيعوا فرنسا فإنها جاءتكم بالأكل واللباس والحلوى لأطفالكم ثم أشار بيده إلى رأسه وصدره وكتفيه وقال:
- " آمان "
فقلت في نفسي هذه فهمتها هذه من عندنا مسروقة إنها: آمين.
وفي نهاية الجلسة بعدما أفاض الخطباء وتباروا في فنون الكلام.. قام فينا شيخ طاعن في السن بعدما ران الصمت على الجمع الغفير.. فقال:
يا جماعة صلوا على النبيّ محمد.

فقلنا بصوت مدوّ:
- صلى الله عليه وسلم...
ثم انطلقنا متفرقين...

الصنم والقربان.

فجأة ومثل شهاب يولد في صفحة الليل المدلهم ، اكتشفت أنني أعبد صنما.. يا للكارثة.. أين العقل ؟ أين العلم والمنطق والبصيرة ؟ هكذا بكل بساطة أجدني أسير عبودية سخيفة ، غير ممكن ؟ رأسي يكاد يتشظى ويلي من أبله.. كيف حدث ذلك ؟ كيف مرت سنوات وأنا معتكف على ذلك الصنم ، أتمسّح بأعطافه أريق عند قدميه ماء وجهي وبهجة روحي ؟ حسنا لنبدأ الحكاية من أولها:
قالت جدّتي:
هذا ولد فطن.. أضاف جدّي وهو يحشوني غرورا:
سيكون له شأن وأي شأن ، وأشار على أمي أن ترقيني من العين فهي نافذة في قريتنا..
ضمتني أمّي إليها في حنو مفرط وقالت:
- أعيذك بكلمات الله التامات من شر ما خلق..
نعم أعاذتني بكلمات الله بلسانها ، ولكنها بأفعالها كانت تنفخ في عنجهية إبليس وصلف فرعون.. خير الحلواء لي وأفضل الثياب ، والكلمة الطولى على أخواتي البنات ، أخواتي أيضا شاركن في المؤامرة ودفعن بي نحو الهاوية عن غير قصد منهن.
أحسست أن شاربا كثا قد نبت فوق شفتي الغضة ورحت أمسّده في زهوّ، لم يكن في الحقيقة سوى زغب طر لما يغزر بعد .. " أقيم الدنيا ولا أقعدها حتى تتحقق رغباتي:
- هاتوا جروا أربيه مثل الولد فلان.. كبر الجرو وصار كلبا ضاريا ينهش الرائح والغادي بتحريض منّي واستمتاع مثير يجسد قمة السادية ، وأبي

يدخل في صدامات ومشاكل لا يعلمها إلا الله دفاعا عني وأني مجرد صبي شقيّ ما زال لا يدرك سر الحياة.
-" لابد لي من درّاجة " هكذا صرخت ذات صباح وبعد يومين كانت الدراجة بين رجليّ وأنا اقطع دروب القرية مستفزا المارة في عنف وتهور.. انكسرت الدراجة بعد بضعة أسابيع ، فجاءت الثانية والثالثة حتى مللت وطلبت حصانا فلست أقل من ابن شيخ القرية ، وأنا أيضا أطول منه قامة وأغلظ ساعدا.
في الثامنة عشرة كدت أخطف ابنة أحد أعيان القرية وكادت العداوة تتأجج بين العائلتين لولا تدخل العقلاء الذين توصلوا إلى حل وسط هو تزويجي من الفتاة مع دفع مهر غال جدا.. انتابتني نشوة العريس ورحت أرقص بجنون في زفافي الذي كان حدثا مميّزا في القرية لم ينسه ولن ينساه شبابها وشيبها ، فقد سكرت فيه حدّ الهذيان ولم استبق أحدا لم أشتمه أو أهينه.
أبي وعشيرتي كانوا الستار الحديدي الذي يحول بين الناس وبين الفتك بي ، ازددت جنونا وصلفا... درست ونلت أعلى الشهادات بوسائل ملتوية ، حلقت فوق ربى الكبرياء والتطاول ، لم أعد أنظر سوى في أعطافي وصارت المرآة رفيقتي التي لا أملّ عشقها والذوبان في إشعاعها الباهر ، صار عندي المال والعلم ، والجاه ورثته كابرا عن كابر .
سافرت أنفقت أسرفت في النفقة ، عُيّنت في أعلى المناصب بواسطة علاقات عائلتي " الواصلة " سحقت كثيرين بقدمي ولم ألتفت إلى خلف أبدا.. رددت في ذاتي المنتفخة:
" تؤخذ الدنيا غلابا.."
غدا ذلك المقطع من بيت شعر لشاعر لا أذكر اسمه شعاري في الحياة..
ماتت أمّي فجأة ولحق بها أبي بعد بضعة أشهر كمدا عليها.. لم تتعذب أمي كثيرا أو هكذا قيل لي ، لأنني لم أرها عدة شهور قبل وفاتها.. ارتفاع مفاجيء في الضغط الدموي أودى بها ، وقيل لي أيضا أنها لم تقل شيئا قبل أن تسلم الروح سوى جملة واحدة قصيرة:
- " واحرّ قلباه عليك يا كبدي رميت بك إلى الهاوية ".
أبي أيضا عندما حضرته الوفاة أوصى عمي أن يردّني عن سبيل الغي الذي أوغلت فيه.. ولكن دون جدوى..
كم آذيت من البشر.. وكم ظلمت ، وتعدّيت كلّ الخطوط الحمراء والتي لا لون لها ، جاءت التحذيرات في شكل نصائح ظريفة ثم تحولت إلى تنبيه ، بعده أسفرت العداوة وصرت أجدّف بذراعي في كل الاتجاهات أدميت

وأدميت.. ذقت مرارة الألم لأول مرة عندما تصدّى لي بعض الكبراء وأرهقني جدا ، ولكنني في النهاية عصفت به.
ذقت كل المتع.. زرت كل مكان فيه لذة أو متعة حسّ.. وخَط الشيب سواد شعري شيئا فشيئا حتى ابيّضّ تماما ، وهنت العظام وكلّت العينان ، بدأت أقيم علاقات مع الأطباء ، صاروا يشحنونني بأكوام من الأقراص والحقن ، أرتدع أحيانا وأحيانا كثيرة أسخر منهم ومن نصائحهم.. وجاء اليوم الذي واجهت فيه قدري.. كنت أقيم في فندق خمسة نجوم يطلّ من جهة على البحر الأبيض المتوسط ومن جهة أخرى على أروع غابات شمال إفريقيا الغَنّاء.
أشير بإصبعي فتحضر الدنيا بكل زخرفها أمامي.. وكان يقيم معي اثنان من الخدم يلازمانني كظلي ، لكنهما أخذا إجازة لمدة أربع وعشرين ساعة لقضاء عيد المولد مع عائلتيهما ، ولست أدري كيف وافقت على طلبهما ، لعلي شعرت بالحاجة إلى الوحدة والاختلاء بالنفس ولو ليوم واحد لا أحسّ فيه أنّ هناك من هو بالجوار يسترق السّمع لحركاتي ونبساتي ، حتى وإن كان خادما رهن إشارتي ، إنها رغبتي الأبدية في الشعور بالحرية المطلقة والمتعة المطلقة.. لم أستطع في يوم ما الجمع بين الثلاث ولا حتى الوصول الحقيقي إلى واحدة منها..
في تلك الليلة استيقضت على كابوس مريع هزّ كياني وجعلني أرتعش من الرعب ، ناديت الخادمين فأجابني الصدى وزمهرير برد كاسح ، حاولت تشغيل جهاز التدفئة فلم أفلح.. اتصلت بالخدمات في الفندق ، فنبئوني أنّ عطلا طارئا أصاب التدفئة المركزية ، صرخت شتمت ، هددت.. لم أجن غير اعتذار سخيف ووعد باهت بإصلاح الوضع في أقرب وقت ممكن..
انتابتني آلام مبرّحة في الرأس.. تناولت قرص أسبرين ، ازدادت الآلام فضاعة تذكرت قرار الطبيب الأحمق:
-" لابدّ أن تعود إلى أهلك.. لتقضي ما بقي لك من أيام بينهم.. فلا يوجد أي علاج لحالتك ، أنت في مرحلة جدّ متقدمة من المرض...
إنه الأحمق الوحيد الذي تجرأ وجبهني بالحقيقة الساطعة ، صفعته بقوة ثم أخرجت مسدسي وكدت أفرغ في جمجمته كلّ الذخيرة غير أنّي عدلت عن ذلك في آخر لحظة.
الآن بدأت تظهر أولى علامات النهاية ، اتجهت صوب المغسل فغسلت وجهي وأطرافي فلم يتغير شيء ، نظرت في المرآة وفي لحظة صفاء مذهلة رأيت.. الصنم..

الصنم يرمقني بعينين ميتتين وملامح باردة.. باردة فوق العادة ، تراجعت في فزع:
" أهذا أنا..؟ "
اقتربت مرة أخرى من المرآة واجهني الصنم من جديد ، لم أستطع هذه المرة تجنبه ، مرّت أحداث حياتي كلها مثل شريط سينمائي سريع في ذهني الذي يكاد يُفلق.. توالت الأسئلة المقلقة مثل الفطر ، وراحت تتراقص أمام ناظري متحدية: وبعد..؟ إلى أين..؟ وحتى متى..؟
كم مُرّة هي الأسئلة مثل العلقم.. والأمرّ منها أنه لا غنى عنها.. حشرة تولد من غيرها في لحظة زمن منسيّة لتلد هي بدورها ، ثم تتلاشى دون أي حدث مميّز.. ترى من يميّز حشرة ماتت بين آلاف مثيلاتها ؟
- ما الفرق بيني وبين الحشرة ؟
وجاءني صوت من المرآة فتتني:
- " الصنم ".. أنت صنم وهي حشرة وحسب ، أنت تعبد ذاتك وتطوف بنصب أهوائك.. وهي تموت ليحيا غيرها مكمّلة دورة الحياة العظمى.. الصنم أنت وأنت من يطوف بالصنم ويقدم له القرابين..
الحلواء التي تستأثر بها دون إخوتك قربان.. والدراجة قربان.. واللباس قربان وصوتك المجلجل في بيت أبويك صغيرا ويافعا دون أن يسكته أحد قربان.. والمال والجاه قربان وفي النهاية كنت أنت القربان...
ما أسخف أن يعبد المرء صنما من لحم ودم و.. عَذِرَة..

نواطير الزمن الهلامي..

سفر.. سفر طويل وشاق ومتواصل عبر كتل الزحام التي انتفخت بها شوارع المدينة وأرصفتها وبيوتها الضيقة ، حتى القصور القليلة والدارات المعدودة اكتسحها الزحام الخانق أيضا ، وضاقت بما فيها ومن فيها.

" الحذاء لن يصمد أكثر من شهر .. وقدماك المتورّمتان المليئتان بالكدمات والرضوض لن تسعفك في قطع مسافة الكيلومترات الثلاث نحو عملك اليومي في الجامعة..

والطلبة..؟ ويك من الطلبة ، نظراتهم تمسح هندامك الزري مسحا وتخترق مسامّك المترهل.. فلسفتك أفٍ لفلسفتك.. لم تعد تقنع أي منهم ، فنغمة الزهد نكتة سمجة ، ونبرة الكفاح من أجل المبادىء لغة خرساء لا تفهمها أذهانهم التي ألفت لغة " الرآي " والتهاويل الأخرى مما لا يروقك معرفة أي شيء عنه.

رحلة بحث ودراسة تمنح لك هدية من السماء ، تعوّض بها سنيّ الجوع والصدى.. لكن ليس عليك شيء من ثياب ما يحميك من زمهرير بلاد الثلج والصقيع ، وأنت ابن الصحراء التي لا تكاد تغيب عنها الشمس إلا لتطلع من جديد..

تذكر مقولة جدك التي تشبه الحكمة في زمن القحط:

" الصحراء أمّ الفقير يا بنيّ "

الهمسات تتعالى شيئا فشيئا:

" مومياء.. الدكتور المومياء.."

وبدل أن تثور.. تسخط تنتقم تؤدّب السفلة من سفهاء الطلبة.. تتحدى التيار الهائج وتروقك التسمية:

- أنا الدكتور الكبير في الفلسفات الشرقية " مومياء ".. قالتها زوجتي قبلهم جميعا وهي تنتف شعرها حسرة:

- يا لمصيبتي فيك.. النساء يتزوجن رجالا وأنا تزوجت " فزاعة " فزاعة عصافير..

ضحكتَ من الأعماق والمرارة تربو في داخلك يوما بعد يوم آخر مثل طوفان نوح ، الفزّاعة والمومياء شيء واحد لا فرق ، حتى الصحفي الوحيد والذي تجرأ يوما وأجرى معك حوارا حول الفلسفات التي قامت

عليها الحضارات القديمة ، وأخذت تفيض بحرارة وتدفق لا ينقطع.. كان يتثاءب بين آن وآخر ويدفن عينيه بين أوراقه كي يتفادى سماع محاضرتك الركيكة وفي اليوم التالي خرجت الصحيفة بعنوان بارز:
" في أرشيف الزمن داخل مغارات الحضارة القديمة "
وافتتح الصحفي مقاله الأجدب بقوله:
"رجل يعيش بين دهاليز التاريخ وفي أقبية الغيبيّات المنقرضة..."
وبدلا من أن تمزق المقال إربا إربا وترمي به في القمامة ، كما بدا لك لأول وهلة قصصته بعناية وجعلته داخل إطار مذهب وعلقته فوق جدار مكتبك بعد أن كتبت فوقه بخط عريض " نموذج للفهم الفلسفي البدائي ".
كانت حربا شرسة وقفت فيها وحدك ضد المجتمع بأسره وجملة المواساة في صدرك لا تكفّ عن القلقلة:
" مساكين.. بدائيون من العصر الحجري..ما يزالون في سفح هرم المعرفة.."
وطأطا رأسه قليلا إلى الأرض وهو يتنهد:
" والجورب أيضا ما عاد فيه ما يستر القدم ، إنّ أكثر ما يحزّ في نفسي أن أنزعه في الميضأة فترمقني العيون بنظرات نارية لاهبة..
مومياء .. أنا مومياء أو فزاعة عصافير.. وماذا بعد هذا لا يهم..؟ لا يهم ، المهم أنني أدرك ذاتي وأعي من حولي بتجلٍ باهر تلك هي متعة الحياة القصوى.."
أسبوع عاصف.. تفاعل راعد يسري في مدرجات الجامعة على شكل همهمات ووشوشات دهشة:
- المومياء... الدكتور المومياء يمدّ يده في حنق ويسحب الستار عن فضائع المجتمع من القمة إلى القاع.
فزّاعات العصافير المحنّطة تنتشر في كلّ مكان والعيون عنها كليلة.. الدكتور يكتب بعنف وقصف مركز ، الصحف تتسابق على مقالاته ودور النشر تحاصره بعروضها المتهاطلة لتأليف كتب مثيرة تكشف حقيقة المجتمع الحجري كما يسميه.. وتأتي مع كلّ ذلك الثروة مثل الطوفان ".
شيء ما في صدره يتغير .. وجه متورد سحنة وضاءة تفيض بالبشر ، بذلة أنيقة على قوام ممشوق ، وآنسات مغرورات يتهافتن عليه في شبه تقديس.. وعروض عمل من الخارج ، ودعوات للمحاضرة وإقامة الندوات الصحفية.
شيء ما في صدره يتغير...

لغته صارت أكثر دبلوماسية.. الأضواء أخذت بمجامع لبّه.. لم يعد بيته المتداعي يناسب وضعه الجديد ، اشترى دارة فخمة تطلّ على البحر المصطخب في شتاء ذلك العام العاصف..
شيء ما في صدره يتغير.. وفي يوم شديد البرودة وقف في مدرّج الجامعة أمام طلابه وجعل يخلع ثيابه قطعة قطعة وهو يصرخ في هستيريا:
" المومياء تسكن أعماقي يا نواطير الزمن الهلامي.. "

قميص العار

دقات الطبل تدوّي في أعماقه ، جدران بطنه تهتز للصوت الصادي ، ورنين " الزرنة " يمزقه أشلاء ! يحسّ الزغاريد المتقطعة سفافيد تخترق طبلتي أذنيه يرسم الابتسامة قسرا على شفتيه الجافتين ، لسانه متصلب في فمه ؛ زادته رشفات الشاي الأخضر يباسا ومرارة... ينكمش على ذاته مندفنا في أعماق البرنس الأبيض المطرّز الجوانب بالحرير " خطرت في ذهنه مفارقة عجيبة: البرنس الشعبي المطرّز يعلو البذلة العصرية الأنيقة ! " دقات قلبه تكاد تفجر صدره ؛ صوتها يزداد قوة مع كل ضربة طبل مدوية ! عيون الأقران تحاصره تطارد حركاته تلقي القبض على تفاصيل وجهه بين الفينة والأخرى تتعالى أصواتهم الداعرة:

- لا تخف.. أثبت.. لا ترتبك كن رجلا.

- افترسها مثل الأسد لا تترك لها فرصة لالتقاط أنفاسها.. حاذر أن تخدعك جردها من كل ثيابها.. فأنت لا تدري ماذا تخفي في طواياها.

- لا تبطئ يا أستاذ فتصير أحدوثة القرية مثل شعبان (تايوان)..

وتنصرف عنه العيون برهة لمراقبة شفتي المتحدث وهو يعيد في تلذذ شهواني للمرة الألف قصة شعبان (تايوان) الذي خانته رجولته ولم يقو على جلاء زوجته إلا بعد أن التمسوا له (الطالب) و(العرّاف) وعقاقير شتى تبعث الحياة في الأجداث.

تنفس بعمق مسح العرق المتصبب من جبينه بطرف كمّه رغم برودة الجو في تلك الليلة المدلهمة.. غاص في أعماقه في محاولة هروب من المأزق:

(أنا الأستاذ الجامعي دكتوراه في علم الاجتماع تحاصرني التقاليد الهجينة وأنساق للعادات الصدئة... وأضع نفسي محور تندر وفكاهة في أعز ما يملكه الإنسان ، الرجولة.. البكارة هذه المعادلة المعقدة كابوس رهيب يجثم فوق صدور النساء والرجال على السواء...وأنا الأستاذ الجامعي الذي يزلزل مدرجات الجامعات سخرية وتسفيها لأغلال الماضي البالية التي تدمر العلاقات الاجتماعية و تعبث بمصائر الفتيان والفتيات.. ولطالما استدللت بأقوال الأطباء وعلماء النفس لنسف خرافة البكارة التي ليست معيارا أخلاقيا مطلقا ، كما أن الخمول الجنسي ليلة الزفاف ليس مؤشرا مرضيا ولا معيارا يحدد الرجولة...).

دقات الطبل العنيفة وصلصلات الزغاريد تعيده إلى الأجواء المحمومة حوله يتقدم منه (لوزير) ويتمتم في أذنيه كلمات يتلقاها مثل وخز الإبر:

- هيا يا " أرقاز " حان الموعد لا تتخاذل ولا تبطئ !

يقف واهن الساقين مرتجف الأوصال يغادر الباحة الواسعة حيث يتجمع الرجال و يلج إلى ساحة الدار الكبرى أين تجمعت النسوة يرصدن فارس الليلة الحمراء... تغيم الدنيا في عينيه يرى كتل النسوة تسدّ عليه سبيله تأتي إليه الوشوشات والهمسات والضحكات الداعرة فيشعر بالتقزز والغثيان.. لا يدري كيف وصل إلى الباب ، وقف مسمّرا لا يجرؤ على الدخول... يد (لوزير) تدفعه من الخلف ، وكأنما الباب ينفتح بكلمة سحرية وينصفق خلفه ثم يسود صمت مطبق للحظات فيَسمع لهاث أنفاسه المتسارعة .. تتجه عيناه تلقائيا نحو عروسه المكسوة بغلالة بيضاء لا يكاد يبدو من جسمها شيء ، رائحة البخور تزكم أنفه وطيوب متمازجة لا يستبينها.. أحس بشيء من الانتشاء وارتخاء الأعصاب جلس إلى جانبها ولم يزايله توتره بشكل كامل ، فترة الصمت طالت أكثر مما ينبغي ، نطق بالكاد والإرهاق باد في نبرات صوته الواهن:

- أكاد أختنق.. أنفجر.. أتلاشى.. أمّحى ذرة ذرة إنّ ذهني غير قادر على امتصاص ما يحدث.. لا يمكن أن ألقي بعشرين سنة من الإبحار في عالم المعرفة و النور خلف ظهري.. وأنغمس باستسلام في عالم موبوء تحكمه رؤى حادة وتقاليد مقدودة من قرانيت العصر الحجري...

صمت لحظات أخرى كأنما يريد التقاط أفكاره المبعثرة وتجميع طاقته المهدورة ثم أضاف:

- من يصدق أنّ أستاذ علم الاجتماع وطبيبة العيون المستنيرة يخضعان لعملية تطفل حيواني مقيت يمارسه ضدهما مجتمعهما المتخلف ، الذي يحاولان بكل ما أوتيا من فكر و ثقافة و طاقة عقلية لإخراجه من وهدة الانغلاق المتعصب إلى ساحة الأفق المتفتح.

تجيبه بنبرة متخاذلة:

- إن تجربتنا على المحك و من الصعب جدا أن نواجه هذا الهدير الزاحف بأسلحتنا المثالية ووسائلنا المعرفية التي لا يعترف بها مجتمع ما قبل الأبجدية.

- لكنّ فيهم مثقفين و متعلمين على مستوى لا بأس به من المعرفة.

- أي معرفة ؟ و أي ثقافة ؟ إنها نوع من الأقنعة التي تغطي حقيقة الذات المهترئة.

- أوَ ألقيتِ سلاحك من أول جولة يا طبيبة العيون المبرّزة خريجة الجامعة (اللندنية) ؟

ولـم يتلـق جوابـا بـل سـاد الصـمت مـرة أخـرى ليتـرك المجـال لفيروسـات المواجع تحفر في ذاتيهما بشراسة ماحقة.
تعالت دقات الطبل المدويّة من جديد وتشابكت مع صلصلات الزغاريد الحادة ورنة الزرنة الهادرة. (لوزير) لدى عتبات الباب يروح ويجيء في توتر وعصبية وبعض العجائز يأتينه من حين لأخر يحرضنه على دق الباب واستجلاء الموقف فلربما وقع ما ليس في الحسبان ، أصحاب (البواريد) ينتظرون في تأهب حذر لإفراغ مخزونها الهائل وتمزيق سجف الظلام بشظايا النار المتفجّرة.
تمتم أحدهم وهو يميل على أذن صاحبه:
- لقد تأخر كثيرا... إذا كان لا يقدر فلـ... وأرسل ضحكة ساخرة.. فتجاوب معه الآخر بضحكة مماثلة ثم لكزه في جنبه متسائلا في خبث:
- وماذا صنعت أنت في ليلة زفافك ؟ لا تزعم أنك كنت أسرع منه خروجا فعندي من خبرك قضه وقضيضه...
- أصمت يا ابن البهيمة..
و تضاحكا حتى كادا يفلتان بارودتيهما ... دقّ (لوزير) على باب غرفة العروسين بيد وجلة وانتظر لحظات لعله يسمع جوابا ما...
تخفت الزغاريد ودقات الطبل وتسكن الزرنة بين آن وآخر متطلعة إلى الخبر المرتقب وأمّ العريس ترجف من الهلع ، يداها متحرقتان للقبض على القميص الموشى باللون القرمزي ، متلهفة للرقص به وخفقه فوق رؤوس الأشهاد.
في الداخل الأستاذ مستلق على ظهره يتأمل السقف الباهت اللون كأنما الإعياء يشلّ كل أطرافه...
و يأتيه صوتها عذبا نديا يبعث في روحه مقدارا من القوة لا يتصور:
- لا تتردد احزم أمرك ، الطريق أمامك بيّن ؛ إمّا أن ترمي لهم بالقميص ليرقصوا به و يهتك ستر روحينا المرفرفين في فضاء الطهر...
أو تستر هذا السر المقدس فلا تبصره عين إنسان مهما كان ؟
وانتفض واقفا وقد كوّر قبضته دلالة على التصميم والمواجهة بتحد:
- اسمعي سأخرج إليهم لحظة ثم أعود.
وقبل أن يفتح الباب مسح الغرفة بناظريه فلمح صورة معلقة في إطار يظهر فيها أبو زيد الهلالي وهو يجندل الفرسان...أخذها وقلبها لظهرها ثم سحب قلما من أحد الأدراج وكتب عليها شيئا بخط عريض...أدار مقبض

الباب ومن الجهة الخارجية علق اللافتة على المقبض...ثم أوصد الباب خلفه بإحكام...
سكنت الحركة خفتت الأصوات واشرأبت الأعناق في لهفة جارفة وشوق عارم...
حملقت الأعين الكليلة في اللافتة ببلاهة... فلم تقو أي منها على فك طلاسمها...تقدم صبي صغير في نحو العاشرة من عمره وتهجى المكتوب:
" الررجاء جاء... عـ عدم الا لإزعا اج وو ششكررا ".

متاهات المدينة.

جنون موسيقى " الرآي " يثير بداخله براكين الغرائز المتوثبة:
ـ "آه يمّة علاش ولدتيني "

يسكر بغير خمرة مثل صوفي فقد صوابه ، وبدلا من أن ينسى تمثلت له كلّ الرغائب دفعة واحدة كفطر برّي سام وعندما مرّت به وفجرت في رجولته كل تبرجها ؛ كاد يمزق قميص الجين بدلا من جبة الصوف العتيقة داس على الفرامل بعنف فعوت العجلات مثل ذئب مسعور ، ورسمت على الإسفلت الباهت خطوطا سوداء داكنة ، لكز زميله الذي يحاذيه على الكرسي الأمامي وزمجر مهتاجا: "هذه يا ابن الكلبة التي نبحث عنها..أمسك المقود وإلا رطمت السيارة بالجدار يا ابن السا... "
مد رفيقه - الذي حلق رأسه على طريقة رجال المارينز- يده إلى المذياع ورفع صوته فتعالى الصخب أكثر ، ممّا جعل المارّة يرمون الشابين بنظرات شزراء ، سرعان ما يبتلعون غصّتها ويمضون في الزحام الخانق.
غيرت الفتاة مسارها متجنبة بركة صغيرة كونتها المجاري القذرة المتدفقة من أسفل عمارة متداعية.. صعدت إلى الرصيف منزوع البلاط لإعادة تجديده وهي تسد أنفها بإصبعي السبابة والإبهام..وترمق أسفل حذائها بنظرات متوترة خوفا من أن يكون قد علق به شيء.
لم يجد سائق سيارة " لاقونا "ورفيقه غير الخوض في قذارات البركة حتى يتمكنا من ملاحقة الفتاة والاقتراب منها أكثر.
على بعد بضعة أمتار انبعث صوت " السّديس " من مكتبة " أحفاد عقبة " يبعث في جوّ الشارع الشعبي نبضا خاصا لا تملك معه الآذان إلا أن تخشع لحظات لكلمات الوحي ثم سرعان ما تنغمس في النسيان.
في هذه الفترة المبكرة من الصباح تعرف المكتبة إقبالا نسبيا ، لاحظت الفتاة بخزرة خاطفة أنّ الشابين يتعمدان الاقتراب منها بشكل استفزازي ، فآثرت أن تلج المكتبة تجنبا لأي صدام معهما.
في الواجهة الزجاجية لاحت لها صورة فتاة محجّبة على شريط فيديو كان عنوانه "حجاب المرأة المسلمة " أغضت عينيها في حياء يشوبه شيء من الانكسار ، كأنما تذكرت ذنبا مطمورا في أعماق الذات.
صاحب المكتبة الملتحي يشيح عنها في تأفف ، لقد كان تبرّجها فضيعا... كل ما في المكتبة يتراءى لها سياطا متوقدة تلهب جلدها المقشعر وجلا ، انكمشت على نفسها كأرنب مذعور ، غير أنّ بعض العناوين كانت ترمي لها بطوق النجاة بين الفينة والأخرى أو بين رفّ وآخر: " ما يزال الخيار بيدك " ، " أيتها العفيفة احذري ذئاب المدينة " ، " توبي إلى الله " ، "جنة

الحجاب " بركان هائج من القلق يضطرم بصدرها ، يرسل اللاشعور إلى الوعي مسكنه الاعتيادي: " ما يزال في العمر مدى للعربدة "
فجأة تقرّر الخروج من المكتبة ، فلم يحن أوان السجادة والمحراب بعد.
صورة على قرص مضغوط تبقى عالقة بذهنها ، إنّ الوجه مألوف لديها، داعية " مكرفت " عنيد ومشاغب إنّ صوته قوي الرنين في أذنيها إنه يدوّي في صدرها بعمق.
- آه يا إلهي... لماذا تطاردني هذه الصور اليوم بالذات ؟
تحفز الشابان لمواصلة المطاردة عندما أطلت برأسها خارجة ، داس السائق على المسرّع فصدر عن السيارة شخير مزعج ، اقشعر له جسم الفتاة ، وشعرت بالتقزز ، فأحدّت النظر في السائق الذي كان منشغلا بالبحث عن شريط " رآي " في صندوق أمامه.
ازدادت قشعريرة لما تثبتت من ملامحه ، إنه هو بغير شك ، يا للمصيبة.
أسرعت الخطو نحو شارع جانبي لا يمكن لسيارة "لاقونا " أن تخترقه ثم غابت داخله ثم ما لبثت أن خرجت إلى شارع آخر، كان في المنعطف محل للهاتف ولجته دون أن تحدد ما ستفعل.
نقرت عدة مرات على أرقام عشوائية دون انتباه ثم وضعت السماعة في اضطراب.. خرجت متعثرة دون أن تلتفت لشيء فاعترضتها سيارة الـ " لاقونا " في إصرار عنيد ، قررت أن تقف في تحدّ وترى ما سيحدث.
انفتح الباب وسمعت صوتا- لم يتخلص من نبرة الطفولة بعد- يناديها بلطف: - هيّا يا " بنت بلادي "..
لم تتردد هذه المرة ، صعدت السيارة وألقت بجسدها المنهك على الأريكة الوثيرة ثم قالت في نبرة عتاب مرير:
- هيه..إلى أين ستأخذني يا جمال يا ابن أختي فطيمة ؟
رمقها الفتى بنظرة ذاهلة وحشرج كلمة يبست حروفها على شفتيه قبل أن يسقط رأسه على ركبتي رفيقه منصعقا:
- خا..لتي .

ظلال الموت.

" الحياة قنطرة أحكم بناؤها وجمّلت جوانبها وحليت بزخارف وبهارج فاتنة ، فمنّا من يمرّ عليها في عجل بغير تريث ، ومنا من يقطعها متباطئا ضنينا بالخطوات ، ولكنه حتما سيمرّ ويفضي به مصيره إلى الضفة الأخرى ".

كانت كلماته في تلك الليلة فيضا من روحانية لا عهد لأبنائه بها ، كما أنّ زوجته فغرت فاها وتلألأت في عينيها دموع كبحت جماحها بضحكة مبتسرة حاولت أن تطرد بها جوّ الحزن الذي أظلم هذه الليلة بسبب كلمات الشيخ العجوز التي كأنما جاءت من عالم الأموات.
وأتبعت ضحكتها بتهكم مازجه شيء من الإشفاق والحنوّ:
- هيّا إلى الفراش يا أبنائي فيبدو أنّ أباكم العجوز قد أصيب بالخرف ، أو أنه أكثر من أكل الحساء حتى غدا يخطرف من الغثيان.
لم يزد الشيخ على أن نظر إليها نظرة عطف وتألم ، كأنه يريد أن يقول أنه ظلمها وأخذ منها زهرة شبابها ، ثم هو ذا الآن يشعر أنه يوشك أن يذرها وحيدة وينتقل إلى الضفة الأخرى.. ثم حرك زاوية فمه اليمنى بابتسامة خفيفة أردفها بإغماضة دافئة من عينيه ، ورمقته زوجته الشابة التي لم تشارف الأربعين من عمرها بعد ؛ بنظرة معاتبة وخاطبته لائمة:
- أنت في كامل صحتك وعافيتك ، فما الذي يدعوك إلى حديث الموت المقرف هذا..؟
- لست أدري ولكن.. ولكن أشعر كأنّ قوة خفية تدفعني دفعا إلى أن أرمق العالم الآخر بعين والهة وقلب مشوق.
وران بينهما صمت قاس ثقيل الوطأة ثم طأطأ العجوز رأسه وهو يقول بكلمات مخنوقة:
- سامحيني..
وانبجست في نفسها عاصفة من الوجع وكادت تنخرط في موجة من النحيب المحموم لولا أن تماسكت وقطعت حوارهما وهي تسوي الغطاء حول جسمه:
- يكفيك حديثا عن الآخرة والغيب نم أنت أيضا ولا تنس أنه عندك نوبة سقي بعد منتصف الليل.
في تلك الليلة المقمرة لم يداعب النوم أجفانه إلا بضع دقائق ثم ما عتم أن أزاح الغطاء عنه وتسلل في خطوات وئيدة إلى " حوش الدار " الذي تتوسطه نخلة باسقة ذات أكمام وارفة غائرة الجذور في الأرض.
جلس متكئا عليها وعيناه تحدّقان في ضوء القمر الفضيّ..تراءت له سنوّ عمره الماضي كمجرى ساقية تتابعت مياهها على عجل وأوشكت أن تنقطع أو تغيض ولم تترك وراءها سوى لذة وشوق قديم هي كل زاده في أخريات العمر.. نظر إلى ساعته على ضوء أشعة القمر الخافتة ؛ لقد

تجاوزت منتصف الليل بقليل ، فلا بأس عليه أن ينطق الآن إلى البستان دون أن يوقظ زوجته.
وبلذة نادرة سقى بستانه وتفقد نخلاته ، وودّ لو أنه احتضنها واحدة واحدة، مع نسمات الفجر العبقة بنكهة الطين الندي كان عائدا إلى بيته وبين جوانحه بصيص نور راح يخبو شيئا فشيئا.
واستقبلته زوجته في قلق باد:
- كيف لم توقظني عندما خرجت ؟
- لم أشأ أن أزعجك.
- ولكن على الأقل كنت أعددت لك قهوتك.
- حسن سأشربها الآن.. وعجّلي فقد ثقل علي رأسي ووهنت أوصالي.
جلسا متقابلين يرتشفان القهوة سويا.. تأملها بعمق ، لم تنطق شفتاه ولكنّ عينيه قالتا كلاما كثيرا ، سألها للمرة الثانية بتوسل: " أرجوك سامحيني."
اهتزت نفسها وتقلقلت الطمأنينة في صدرها ، انحبست الكلمات في حلقها، شعرت أن النخلة الباسقة بدأت تنقلع من الأرض وتنهار.
بعد أن توضأ وصلى تمدد على فراشه وطلب منها أن توقظه بعد ساعة، تململ في مكانه ثم رفع رأسه والتفت نحوها قائلا:
- إذا سقطت نخلة " الحوش " فاحرصي أن تغرسي مكانها فسيلة أخرى تخلفها، فلا بد للدار من ظل وارف يبسط عليها جناحيه.
انحبس الريق في حلقها.. جفت شفتاها.. أرسلت دمعتين ساخنتين ثم انصرفت لبعض أشغالها بخطى وئيدة وقلب منقبض.
جاءت إليه بعد ساعة اقتربت منه في وجل.. نادت عليه بلطف فلم يجبها، رفعت صوتها قليلا فارتدّ إليها الصدى.. حركته بيدها فتلألأت في وجهه إشراقة نور سنيّ وابتسامة وداع عذبة ، وبحركة خفيفة من أصابعها مددت الغطاء عليه ليستر كامل جدثه.

أيتها الزهرة استيقظي..

عندما يمتزج الضوء والماء وروح التربة تقول الحياة للمولود الجديد:
أسكر العيون البريئة...
بقدميه الحافيتين وشعره المشعّث وعينيه اللتين ما تزال آثار النعاس تتساقط عنهما شيئا فشيئا ، فتح باب بيتهم الخلفي المفضي إلى الحديقة ؛ فداعبت خدّيه نسمات الصباح الندية مزيلة خدر الليلة الماضية دفعة واحدة.

وبخطوات خفيفة كان في لحظات يقف قبالة الزهرة الوحيدة ؛ التي تفتحت أكمامها في حديقتهم إذانا بقدوم الربيع الضاحك.
تأمّلها مليّا بنظرة متطلعة وقلب شغف ، شاقه احمرارها وملاسة أوراقها.. مدّ يده الغضة محاولا اقتطافها ، أدمت الأشواك أصابعه فسحب يده بجزع .. شعر بعداء شرس يولد في صدره ، إنه غدا يمقت هذه الزهرة وفي الوقت ذاته تحدوه لهفة عارمة إلى امتلاكها.. دنا منها أكثر ، غمرته رائحتها الزكية.. افترّ ثغره عن ابتسامة مقتضبة ، مدّ يده للمرّة الثانية.. طارت نحلة من جوفها فبثت في قلبه الفزع.. تراجع خطوات إلى الخلف وقد مال بجذعه جانبا ليتفادى مسار انطلاق هذه المخلوقة الغريبة التي لم تقو عيناه على متابعة طيرانها في خطوط متعرجة ، بعد برهة استعاد توازنه وتنبّهه وعاد إلى الزهرة من جديد.. شوق وحيرة تشابكت في صدره مثل أصوات غامضة تأتي من بعيد فلا تكاد تميزها الأذن، لكن النفس تنجذب نحوها بقوة.
مد أصابعه للمرة الثالثة واقتطف ورقة بمتعة خفية والتذاذ كبير..تأملها برهة رفعها بين إصبعيه ؛ اخترقتها أشعة الشمس فبدت وردية اللون ، أراد أن يغطي بها قرص الشمس ؛ لم يفلح.. كانت أصغر وأشفّ من أن تستطيع ردّ حزم النور المتوقدة ، تركها تنزلق بين أصابعه وتقع على الأرض بلا صوت أو خشخشة ، وفي اللحظة ذاتها انطلق عصفور الدوري الذي كان منكمشا على نفسه ؛ بين أغصان شجرة قريبة ، وأرسل زقزقة بدت له مثل صدى بكاء مكتوم ترجّعه جبال بعيدة.
سرّته اللعبة فأخذ ينتف أوراق الزهرة واحدة فواحدة ؛ حتى صارت عارية تماما.. تراجع قليلا برأسه الصغير ورمقها بنظرة محتجّة كأنه يقول:
- كم أنت بشعة ألا تملكين مزيدا من الأوراق ، وأخيرا أخذ فرعا جافا؛ كان ملقى على الأرض بين الحشيش الندي ثم رفعه في الهواء عاليا وبضربة حانقة أهوى على غصن الزهرة العارية.. فلم ينكسر وإنما التوى منحنيا إلى الأرض.
نظر إلى الأوراق المتناثرة على الأرض بشكل عشوائي.. جمعها في كفه وتناول واحدة منها وأراد تثبيتها على الغصن المتدلي فسقطت متراقصة مرة أخرى أخذ ورقة أخرى وحاول من جديد وسقطت أيضا، لم ييأس.. كرّر التجربة مع بقية الأوراق إلى أن خلت منها يده ، ولما انتهى رآها مبعثرة جميعها على الأرض كما كانت والغصن ما يزال منحن بانكسار..

فجأة انحنى الصبي باكيا ومرتجيا الزهرة بصوت أخنّ:
- انهضي أيتها الزهرة.. انهضي أريد معاودة اللعب معك من جديد..
كفّ حانية تلامس كتفه ، يلتفت محمر العينين متكسّر الأهداب.. يلفي أمه وراءه وقد احتوته بنظرة مشفقة فيها بعض من عتاب دافىء:
- ماذا صنعت بالزهرة يا بني..؟
- لاعبتها قليلا فنامت ولم تشأ أن تستيقظ مرة أخرى ، إنها لا تريد اللعب أطلبي منها أن تلعب معي يا أمي.
مسحت الأمّ على رأسه بيد حريرية مرت على شعره مثل نسمة رقيقة، وتطامنت مقعية لتنقش فوق جبينه الأسمر قبلة معبأة بنفس الحب المتوهج ، ثم رسمت على شفتيها ابتسامة عذر وهي تقول:
- بني.. إذا أردت أن تستمتع بالأزهار وتراها دوما ضاحكة بإشراق فاتركها في براعمها تعانق خيوط الشمس الدافئة...

رجل من السماء.

نظرت إليه بعينين منكسرتين وقلب أطبقت عليه الأشجان ، فما يخفق إلا تعلقا بأهداب الحياة.. بدت على وجهه ملامح الهدوء والسكينة.. كان يعرف أنها النهاية ، فما اختلج له جفن ولا اعتراه الوجوم.
ابتسم في براءة الأطفال وهو يمسح بعينيه الذابلتين الغرفة المكتظة ببنيه وأحفاده وبعض قرباه..
أواه ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ، رغم الحروق التي علت نصف جسده وامتدت إلى أعماق بدنه الهزيل إلا أنه لم يتأوّه ولم يئن ولا اشتكى ولا أبدى أي توجّع.. كان مستسلما لقدره في يقين مدهش.

يا إلهي إنه رجل من السماء يسخر من الألم ويهزأ بالجروح والأدواء ، كأنما المرض عنده نسمة هواء تداعب خديه في ساعة صحو وصفاء ، فهي برد وسلام على قلبه.
حرك شفتيه مردّدا اسمي ، فالتمع بينهما سناء ساحر ؛ اختزن فيه كل ذكريات السنين الحلوة ونشوة الماضي المعبأة بعطر المحبة والوفاء.
- سمير.. هل تعمل بالمدينة ؟
قالها بـ " الشاوية " فهو منذ بضعة أشهر لم يعد يتكلم غيرها إلا في صلاة أو ذكر ، لا لأنه لا يحسن العربية أو لأنه لا يحبّها ولكن الشاوية هي لغة طفولته وريعان شبابه ، فكأنما ارتدّ القهقرى إلى بضعة عقود خلت طوى فيها كل حدث طرأ على حياته ، بعد سني الطفولة ومرح الصبا و صفاء النشأة الأولى.
ورغم ذلك فقد فهمته وأجبته أن قد لا ، ولكنما جئت لأطمئن ، فكيف تراك أصبحت ؟
- بخير.. نحمد الله.
قالها وكأنما إشعاع من السناء المتوهج يرفرف فوق وجهه ، ويضفي على المكان كله هالة متلألئة.
بخير.. والجروح تدمي قدميه.. بخير والألم يعتصر مهجته.. بخير والأصابع منكمشة يابسة لا يقوى على بسطها.. بخير رغم كل شيء.. بخير وتعسا للدنيا ، بخير ونفسه العظيمة تهزأ بالضنى وتسخر من الألم. بخير لأنّ الخيرة في ما اختاره الله..
شيء واحد كان يؤرّقه في هذه الحياة ، شيء واحد وحسب ؛ إنه صوت الآذان عندما يجلجل أن حيّ على الصلاة.. فيتململ في فراشه يحاول نهوضا ، ولكن يأبى عليه جسده الواهي ذلك ، فيرنو ببصره إلى السماء، ويتمتم في خفوت " قد علمت أني أجبت.. قد علمت..فتقعدني الأوصاب.. قد علمت ".
إيه يا عمّي محمد تعسا للدنيا.. لم تكن لتخطئك صلاة الفجر في الصف الأول لولا الداء العياء.
أذكر جيدا كيف كنت تستقبلنا عندما كنا صغارا - يوم العيد- وتفرق علينا النقود بسخاء ، و رغم العوز والفقر الباديين عليك ؛ لم تكن تبالي بالفقر بل أنت لا تعرفه ولا تلقي إليه بالا..
تدفع عربتك الصغيرة كل صباح متوكلا على الرزاق ويستقبلك بعضهم قائلا:

- إلى أين يا عمي محمد ؟
وتجيبه في يقين خالص كالتبر:
- إلى السوق نتعرض لرزق الله ونحصل " المكتوب ".
هذه الكلمة البسيطة التي تختزن في طياتها كنوزا لا تقدر بذهب أو جوهر.. المكتوب.. نعم كان دائما يأتيك ما كتب الله.
صحبتك إلى السوق مرات عديدة ، وكنت أعلم في أكثر الحالات أن ليس في جيبك دينار واحد..
ويتملكني جزع كبير أن يعود صفر اليدين ، ولكن هيهات.. كان في كل يوم يجد ما كتب له فيه من رزق فما يغل يده ولا يعضّ على الدرهم والدينار، بل يبسطها سخية فياضة بالعطاء كمن لا يخشى الفقر أبدا.
وترتسم البسمة على وجوه أولاده فتضفي على الدار دفئا وسعادة لو بذل الملوك في طلبها كل أموالهم لما نالوا عُشر معشارها.
وقد يحذره الفقر بعض الخلان ويخوفه من مستقبل الأيام فيجيب في يقين بديع:
- الحمد لله.. الخير موجود.. الخير موجود.
ها هو ذا اليوم بعد رحلة العمر المبارك الذي دلف إلى السبعين ، تنطفئ وقدة الحياة من شبح الطين والتراب فيه.. كلما ذوى الجسم أشعتّ الروح ومسّ إشعاعها الوجود من حوله..
وأقبل يوم مشهود تداعت فيه الخلائق من كل حدب وصوب ، يرددون في لوعة وتفجّع ، أحقا سينسرب عمّي محمد منا فلا نسمع له بعد اليوم ركزا..؟ وكان سؤالا كالنواح.
وفي سكينة عجيبة وسكون رائق ومع نسمات الفجر الأولى ؛ رفرفت روح طيّبة إلى عُليا العلي في خشوع ، لم يتألم ولم يحشرج إن هي إلا ومضة ثم.. ثم إلى هناك حيث الرفيق الأعلى.
وبقي جسده مسجى كأنما حفت به الملائكة أو نوّرته قناديل هبطت من السماء ، وكنت من الشاهدين فنظرت إليه للمرة الأخيرة فلم أر جثة هامدة ، ولا جسدا حائل اللون مخطوف النظرات كما وصف الواصفون عن كثير ممن هلك ، ولكني رأيت نجما تلألأ في كل الآفاق مسبحا في ترنيمة مشتركة مع الكون العظيم ، فسبّحت بدموع من لؤلؤ مكنون.

الفهرس